

يلعن روحك ياحافظ

وقصص أخرى

بقلم / محمد غياث استانبولي

المقدمة

الحمد الله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه وبعد:

فـلا يخفـى على أحـد أهميـة القصـة في تكويـن شـخصية الإنسـان وصياغـة تربيتـه وتأثيرها على أخلاقـه وتصرفاتـه ولأهميـة القصـة حفـل كتـاب الله بالحديـث عن قصص الأنبيـاء والأقـوام السـابقين وكذلـك اشـتملت سـنة النبـي عليـه الصـلاة والسلام على قصـص كثيـرة جـدا حتـى قـام غيـر واحـد مـن العلمـاء المعاصريـن بجمـع قصـص القرآن وقصـص السـنة في مؤلفـات مفـردة ولـم تخـف أهميـة القصـص وتأثيرهـا على القراء على أعـداء الأمـة فقامـوا بالتشـجيع على كتابـة القصـص الهدامـة التـي تدمـر شـخصية المسـلم وتفسـد عقلـه ودينـه وتحطـم أخلاقـه وتعبـث بقيمـه فاسـتجاب لذلـك فريـق مـن أذنـاب الغـرب مـن أبنـاء جلدتنـا فرفـع الغـرب مـن شـأنهم وروج لهـم وزعـم أنهـم أربـاب البيـان وفرسـان الأدب وذوو الأقـلام البارعـة والأسـاليب الرائعـة وأنهـم أسـاطين حريـة الفكـر وأصحـاب الشـجاعة الأدبيـة الذيـن يعالجـون الواقـع ويعرضـون تفاصيلـه كمـا هـو دون خـوف أو مواربـة ورصـد لهـم الجوائـز العظيمـة والأمـوال الجسـيمة وكرمهـم على منصـات العالميـة والدوليـة وفي الوقـت ذاتـه سـعى إلـى طمس أعمـال الأدباء الإسـلاميين وحـاول جهـده إخمـال ذكرهـم وإغفـال أعمالهـم والتقليـل مـن قيمتهـا ورميهـا بالجمـود والتزمـت مـع أن أديبـا واحـدا مـن فحـول الأدبـاء الإسـلاميين كالشـيخ علـي الطنطـاوي رحمـه الله يعـدل ألفـا مـن أدبـاء العلمانيـة وأذنـاب الغـرب ودعـاة الانحـلال.

وبعـد فهـذه واحـد وعشـرون قصـة ــــ بعضهـا حقيقـي ليـس لـي فيـه سـوى السـبك والصياغـة وبعضهـا خيالـي ولكنـه مسـتوحى مـن الواقـع ــــ كنـت قـد كتبتهـا في مجلـة بـلاغ الشـهرية التـي تصـدر مـن مدينـة إدلـب وقـد رأيـت أنـه مـن الخيـر جمعهـا في كتـاب واحـد ليعـم بهـا النفـع

واللهَ أسأل أن يجعلها خاصة لوجهه بمنه وكرمه إنه خير مسؤول

مدينة إدلب حرسها الله

18/شوال/1442 هــ الموافق 2021/5/30م

لقمة الخبز الأخيرة

الزمان والمكان : حلب – الشعار – فرن الخبز – 2013

نهض أحمد من فراشه متثاقلا ولا يزال النوم في عينيه، غسل وجهه وارتدى ثيابه وأخذ النقود من والدته بعد أن طبعت قبلة على جبينه واستعد ليمضي ساعات طوالا أمام فرن الخبز حتى يأتي دوره، ودَّعته أمه عند الباب وأوصته أن ينتبه لنفسه وأن يعود سريعا بعد حصوله على الخبز، فهي تخشى عليه من القصف الوحشي الذي يقوم به النظام المجرم.

خرج أحمد من بيته ومشى باتجاه الفرن وأخذ يسلي نفسه بترديد الهتافات التي عمَّت في المظاهرات في أرجاء سورية: «يا الله ما لنا غيرك يا الله» وتارة: «عاشت سورية ويسقط بشار الأسد»، وأخرى: «الشعب يريد إسقاط النظام»، وظل هكذا حتى وصل الفرن، وكالمتوقع وجد أمامه رتلا طويلا من الناس ينتظرون دورهم ليشتروا الخبز.

أخذ أحمد البالغ من العمر عشر سنين دوره في هذا الرتل، وأخذ الرتل يمشي بطيئا بطيئا، وطال انتظار أحمد وأخذت عصافير بطنه تزقزق من الجوع، وأخيرا وبعد ثلاث ساعات كوامل جاء دوره، تقدم أحمد وأعطى الخباز مائة ليرة وأخذ الخبز فرحا سعيدا بانتهاء هذه المهمة الشاقة، ثم نظر أحمد خلفه فإذا هو بصديقه زيد واقفا في الرتل يريد أن يشتري الخبز أيضا وقد بقي أمامه ثلاثة أشخاص، فطلب زيد من أحمد أن ينتظره كي يترافقا في طريق العودة، تنحى أحمد جانبا وأخذ رغيفا من الخبز وبدأ يأكله ريثما يأتي دور زيد، وفي هذه الأثناء سمع الناس صوت مروحية في الجو، وأخذ الجميع ينظر نحو السماء، ولكن أحدا منهم لم يغادر مكانه فقد صار هذا أمرا عاديا ففي كل يوم تلقي المروحيات عشرات البراميل في حلب وريفها.

وبينما الناس ينظرون صاح أحدهم «شلفت، شلفت، فوقنا» وهنا دب الذعر في الناس وأخذوا يتراكضون يمنة ويسرة، خاف أحمد خوفا شديدا ولم يجد إلا برميل مازوت فارغ فاختبأ خلفه ومضغة الخبز لا تزال في فيه، هوى البرميل وانفجر وتناثرت شظاياه مخلفة عشرات القتلى والجرحى.

ومن سمع الانفجار في الحارات المجاورة أخذ يسأل أين سقط البرميل، ووصل إلى سمع أم أحمد أن البرميل سقط قرب الفرن وأن الجثث ملأت المكان، ارتدت حجابها

مسـرعة وخرجـت باتجـاه الفـرن، وبيـن أشـلاء الشـهداء ودمائهـم الزكيـة أخـذت تبحـث عـن ابنهـا قلقـة وجلـة حتـى وجدتـه قـرب برميـل المـازوت الـذي كان مختبئـا خلفـه وقـد اخترقـت شـظية جسـده الغـض الطـري ففـارق الحيـاة، رفعتـه إليهـا ضمتـه إلـى صدرهـا، ولاحظـت أن شـيئا مـا داخـل فمـه، فتحـت فمـه لتجـد لقمـة مـن الخبـز وقـد امتـلأت بالدمـاء، أخـذت تبكـي فوقـه بحرقـة وحـرارة وتدعـو على بشـار ونظامـه قائلـة: «الله لا يوفقهـم، إن شـاء الله ولادك يتيتمـوا يـا بشـار، الله يأخـذ لـي حقـي منكـم»، حـاول النـاس تهدئتهـا وأخـذ الصبـي الشـهيد مـن بيـن يديهـا فرفضـت ذلـك بشـدة وهـي تقـول: اتركونـي، اتركونـي، هـذا حبيبـي أحمـد، هـذا ابنـي، وبعـد جهـد نهضـت أم أحمـد وتولـى الرجـال أمـر الشـهداء، ثـم دفـن أحمـد ووقفـت أمـه عنـد قبـره، وقالـت: أسـتودعك الله يـا ولـدي، اللهـم تقبـل أحمـد عنـدك في الشـهداء وانتقـم ممـن حرمنـي منـه وأذلـه في الدنيـا وعذبـه في الآخـرة.

انتهت..

راودته فاستعصم

فرغتُ للتو من دفن صديق لي عزيز على قلبي، وبعد أن ضمته الأرض بين جوانحها توجهت إلى الله تعالى أسأله أن يجعل صديقي من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، فهو إلى كونه شهيدًا قد تعرض إلى فتنة عظيمة نجاه الله منها وعصمه من الوقوع فيها وأنقذه من الانحدار في مستنقعها.

أما كيف حدث ذلك؟ فهي قصة غريبة يَنْدُر مثلها، وذلك بعد تحرير منطقة الشقيف والجندول في حلب اتخذ صديقي مصطفى من أحد الأماكن هناك مقرًا مع أفراد سريته سرية الظاهر بيبرس، وهذه السرية اختصاصها دبابات وBMB ، ثم شارك مع إخوانه في دبابته في عدد من المعارك أذاق خلالها النظام الأمرين، وفي إحدى هذه المعارك وبينما مصطفى يقود دبابته وبقربه صديقه عادل ضرب النظام الدبابة بصاروخ مضادٍ للدروع فعطبها وغاب مصطفى وعادل عن الوعي.

وجاء المجاهدون وتمكنوا من إخراج مصطفى وعادل من الدبابة ثم نقلوهما إلى المستشفى، فأما عادل فلم يلبث أن فارق الحياة، وأما مصطفى فقد كانت إصابته بليغة وقد أصيب جسده بحروق شديدة، وقرر الأطباء نقله إلى تركيا لينال العناية الطبية اللازمة، وبالفعل حضرت السيارة إلى مشفى الصاخور في حلب ووُضع مصطفى خلالها وانطلقت لتدخل تركيا من باب الهوى وينزل مصطفى في أحد مستشفياتها، لما أفاق مصطفى من غيبوبته أخذ ينظر حوله فرأى الأسِرَّة البيضاء في غرفته المطلة على حديقة المشفى، ورأى السيروم معلقًا في يده، ورأى الطبيب واقفًا على رأسه يبتسم له، ثم رطن ببعض الكلمات وغادر الغرفة، ولم يفهم مصطفى مما قال حرفًا.

أخذ مصطفى يتذكر ما حدث معه، وقفزت إلى ذاكرته صورة الصاروخ وهو متجه إلى دبابته قبل أن يصدم بها ويغيب مصطفى عن الوعي، وتذكر صديقه عادل، فسأل الممرضة إلى جانبه: أين أنا؟ وكيف جئت إلى هنا؟ وهل عادل بخير؟
فلم تفهم الممرضة التركية شيئًا مما قال، وطنت بضع كلمات لم يفهم هو أيضا منها شيئًا.

ثم بدأ مفعول المخدر يزول وأخذ الألم ينهش جسد مصطفى، وأحس أنه مقيد

مكبـل، وأطلـق عــدة آهـات سـمعها مرافقــه فدخــل ليطمئــن عليــه.

فــرح مصطفــى كثيــرًا عندمــا شــاهد «عامــر» أحــد أفــراد ســريته مرافقًــا لــه، وســأله عــن عــادل، إلا أن عامــر أخفــى خبــر استشــهاده، وقــال لــه: حــال عــادل أفضــل بكثيــر مــن حالــك. وهنــا قــال مصطفــى لعامــر أشــعر بألــم شــديد في وجهــي، فقــال عامــر: طبعًــا فوجهــك أصيــب بحــروق شــديدة، وأخــرج عامــر مــرآة ووضعهــا أمــام وجــه مصطفــى الــذي دهــش وهــو يــرى وجهــه ملفوفًــا بالشــاش ولا تظهــر منــه إلا عينــاه.

مكــث مصطفــى عــدة شــهور وهــو يعانــي آلامًــا شــديدة نتيجــة الحــروق، أخــذت تخــف تدريجيًّــا، وبــدأ وجهــه يعــود إلــى شــكله الطبيعــي، وعلــم أن صديقــه عــادل قد استشــهد. كان الطبيــب يــزور مصطفــى كل عــدة أيــام ليطمئــن على صحتــه، وكان الممرضــون والممرضــات متواجديــن بشــكل دائــم مــن أجــل العنايــة بالمرضــى، وكان لا بــد أن يبقــى فتــرة أخــرى حتــى يشــفى.

وقــد لاحــظ مصطفــى أن إحــدى الممرضــات تبــدي عنايــة شــديدة بــه تفــوق عنايتهــا ببقية المرضــى، وفــي بــادئ الأمــر ظــن أن مــرد ذلــك إلــى أنهــا متعاطفــة مــع الثــورة الســورية، وأن هــذا ليــس ســوى رحمــة لــه بمــا أنــه مــن أفــراد الشــعب المظلــوم المضطهــد.

وخــلال الشــهور التــي مكثهــا مصطفــى في المستشــفى التركــي تعلــم كثيــرًا مــن الكلمات التركيــة، بــل أخــذ يتكلــم التركيــة ولكــن بصعوبــة شــديدة وبطء.

وفــي ذات يــوم دخلــت تلــك الممرضــة وجلســت بقربــه، وبــدا عليهــا الخجــل والاضطــراب، ثــم مــا لبثــت أن أخبرتــه أنهــا تحبــه.

صُــدم مصطفــى لمــا ســمع ذلــك وتلعثــم ولــم يــدر بمــا يجيبهــا، حتــى الكلمــات التركيــة التــي يحفظهــا بشــكل جيــد لــم يعــد قــادرًا على اســتحضارها بســهولة لهــول الموقــف. وأخيــرًا قــال لهــا: أشــكرك على مــا بذلــت معــي مــن جهــود وإن الله لــن يضيــع أجــرك، إلا أن هــذا الجــواب لــم يعجبهــا فانصرفــت، وبقــي مصطفــى حائــرًا مضطربًــا قلقًــا لا يــدري مــا يفعــل ولا كيــف يتصــرف.

وفــي اليــوم التالــي رأى إعراضًــا شــديدًا عنــه مــن تلــك الممرضــة، وأخــذت تريــه أنهــا غاضبــة

منـه، ففـرح مصطفـى مـن داخلـه وظـن أنـه كفـي أمرهـا، إلا أنـه وبعـد أن أرخـى الليـل سـدوله عـادت ثانيـة لتقـول: بأنهـا حاولـت الضغـط على نفسـها محاولـةً نسـيانه إلا أن حبّـه قـد خالـط شـغاف قلبهـا، فردهـا ردًا جميـلاً، واسـتمر الحـال على هـذا أيامًـا.

وفي ليلـة مـن الليالـي جاءتـه وأخبرتـه أنهـا رتبـت غرفـة مجـاورة وهيأتهـا لـه وراودته عن نفسـه وأخـذت تعـرض عليـه مفاتنهـا تـارة، وأخـرى تتوسـل بدموعهـا، وثالثـة تشـكو لـه شـدة حبهـا، وأخـذ الشـيطان يزيـن لـه الفاحشـة، ويقـول: جاءتـك فرصـة العمـر، أنـت هنـا غريـب ولا يعرفـك أحـد، وهـذه فتـاة جميلـة معروضـة عليـك، ولـك مـن الجهـاد والحسـنات مـا يكفـر عنـك الخطيئـة.

ظـل مصطفـى واجمًـا لدقائـق يعتـرك داخلـه فيهـا الإيمـان والشـهوة، وأخـذت إرادتـه تضعـف أمـام كل المغريـات، وأحسـت الممرضـة بذلـك، فقالـت: هيـا بنـا، مـا الـذي تنتظـر؟ خطـا مصطفـى بضـع خطـوات معهـا باتجـاه الغرفـة حتـى وقـف على بابهـا، فتحـت الممرضـة البـاب فعبقـت في الجـو رائحـة العطـور، فتذكـر مصطفـى رائحـة البـارود والغبـار في المعركـة، ثـم نظـر إلـى السـرير الناعـم الأبيـض فتذكـر الخنـدق الموحـل الـذي كان يجلـس فيـه أثنـاء الربـاط، ونظـر إلـى جـدران الغرفـة وجمالهـا فتذكـر البيـوت المهدمـة جـراء القصـف الوحشـي، ونظـر إلـى وجـه الممرضـة وقـد وضعـت عليـه شـتى المسـاحيق فتذكـر النسـاء اللائـي يبكيـن أولادهـن الشـهداء، ونظـر إلـى نفسـه فتذكـر صديقـه عـادل الشـهيد وبقيـة إخوانـه الذيـن لا زالـوا يجاهـدون في سـوريا. لـم تعـرف الممرضـة مـا الـذي كان يـدور في ذهـن مصطفـى، ولـم تـدر لمـاذا وقـف عنـد بـاب الغرفة ولـم يدخلهـا، فقالت لـه: هيـا تفضـل ادخـل، نظـر مصطفـى إليهـا، وقـال: لـن أضيـع جهـادي ورباطـي وجراحـي مـن أجـل شـهوة عابـرة حقيـرة، وتذكـر قصـة يوسـف عليـه السـلام فامتـلأ قلبـه إيمانًـا ونزعـت مـن جسـده الشـهوة، وانطلـق خـارج المشـفى لا يلـوي على شـيء.
ولمـا طلـع الصبـاح كان مصطفـى قـد حـزم أغراضـه ورتـب أمـوره مـع سـريته وقـرر أن يكمـل مـا تبقـى مـن علاجـه في حلـب.

أمضـى مصطفـى عـدة أسـابيع حتـى شُـفي تمامًا وعـاد إلـى مقارعـة أعـداء الله النصيريين ومنازلتهـم حتـى رزقـه الله الشـهادة اليـوم وهـو في قلـب المعركـة؛ ليلحـق بقافلـة الشـهداء الذيـن باعـوا أرواحهـم لله، وأرجـو أن يكـون مصطفـى ممـن يـزوج يـوم القيامـة بثنتيـن وسـبعين مـن الحـور العيـن، فهـذه خصلـة مـن الخصـال التي أعدهـا الله للشـهداء.
انتهت ...

استغللت لحظة صفاء من أبي علي فجلست بقربه وقلت له: إيه يا أبا علي ألا تحدثني عن سجنك عند النظام؟
فقال لي: عن أيها يا ابن أخي؟
فقلت له: وهل سجنت أكثر من مرة؟
فقال: لقد سجنت مرتين.
فقلت له: إذًا أخبرني بالقصة من البداية.
فقال لي: نعم يا ابن أخي، خرجت مع الناس في المظاهرة ضد النظام، وكنت أنادي كباقي الناس مطالبًا بالحرية، ولم يجل في خاطري قط حمل السلاح أو تحول المظاهرات إلى ثورة مسلحة، حتى ألقي علي القبض في يوم من الأيام في مظاهرة في بستان القصر وسُقت إلى مخفر قرب منطقة السكري في حلب ومعي بضعة متظاهرين.

ثم أُودعنا الزنزانة ودخل علينا ضابط علوي كما كنا نسميهم، ثم علمنا بعد ذلك أن نسبتهم الحقيقية هي النصيرية، وأن فرنسا هي من أطلق عليهم «علوية» ليخدعوا بذلك أهل السنة.

دخل علينا ذلك الضابط النصيري والكبر قد ملأ عطفيه والشرر يتطاير من عينيه وقد تفجرت براكين الغضب والحقد في صدره، فأقبل علينا يسبنا أقبح سب سمعته، وتتخلل شتائمه ألوانا غريبة من الكفر وانتهاك حرمة المقدسات، ثم توجه إلى واحد منا وجمع يده وضربه بقبضته بقوة على أعالي أنفه فهشمه وسالت من أنفه مادة صفراء، وسقط الرجل على الأرض.

وهنا يا ابن أخي عاهدت ربي لئن خرجت من السجن لآخذن بثأر الرجل.

ولم يطل بنا الأمر؛ إذ لم نكمل يومًا في الزنزانة حتى أحاطت جموع المتظاهرين من أقربائنا وأصدقائنا وإخواننا بالمخفر إحاطة السوار بالمعصم، وهددوا باقتحام المخفر إذا لم يتم إطلاق سراحنا، فاضطر رئيس المخفر مكرهًا أن يطلق سراحنا. فلما خرجت اتجهت مباشرة للوفاء بالعهد الذي عاهدت عليه ربي، وشكلت مع بعض ثقاتي سرية لاغتيال رؤوس الشبيحة الذين عاثوا في الأرض فسادًا.

وكانـت أعمالنـا يـا ابـن أخـي تتسـم بالسـرية الشـديدة؛ فحلـب المدينـة محتلـة بالكامـل ولا يوجـد أي نشـاط عسـكري فيهـا.

وكان مــن الأعمــال التــي قمــت بهــا أن أخــذت مــن بعــض أفــراد ســريتنا ســارية ملغمــة، وعلقـت عليهـا علـم الثـورة الأخضـر، وركزتهـا عنـد دوار جسـر الحـج بعـد أن تأكـدت أن أحـدًا لـن يرانـي، ثـم انتظـرت بعيـداً عنهـا ولمـا طلـع الصبـاح جـاء أحـد الشـبيحة وأخـذ السـارية وقـام بنـزع العلـم، وهنـا ضغطـت الـزر فتفجـرت السـارية وتحـول الشـبيح إلـى كومـة أشـلاء.

كمـا قامـت سـريتنا باغتيـال عـدد مـن الشـبيحة أشـهرهم غيـاث طيفـور الملاكـم الشـهير في مدينـة حلـب.

وتابعنـا يـا ابـن أخـي عمليـات الاغتيـال، وكانـت كثيـرًا مـا تكـون عبـر إلصـاق عبـوات بسـيارات الشـبيحة تنفجـر عنـد إدارة محـرك السـيارة.

وفي ذات يـوم يـا ابـن أخـي حـدث مـا لـم يكـن بالحسـبان، وذلـك أننـا كنـا نخـرج إلـى الريـف لإحضـار لـوازم التفخيـخ مـن طـرق معلومـة لنـا، ليـس فيهـا حواجـز للنظـام، فخرجت مـرة وأحضـرت مسـتلزماتنا، وكان فيهـا طـن ونصـف مـن المتفجـرات، وفي طريـق العـودة شـاهدت مـن بعيـد حاجـزًا رافعًـا علم الثـورة، وكنـا سـتة مجاهديـن في سـيارتين، وجميعنا مسـلحون، فلـم أكتـرث بالأمـر، فلمـا اقتربنـا إذ بالأسـطح مليئـة بالمسـلحين وقـد وجهـوا إلينـا أسـلحتهم، فظننـت أن هنـاك سـوء تفاهـم، فنزلـت لأكلـم أميـر الحاجـز، وإذا الحاجـز كميـن للنظـام وهـؤلاء المسـلحون شـبيحة يتبعـون لشـبيح يدعـى أبـا دريـد، فاعتُقلنـا جميعـاً ونقلنـا إلـى الفـوج 46 ولـم يكـن محـررًا يومـذاك، ثـم إلـى فـرع الأمـن العسـكري في مدينـة حلـب.

وهنـاك رأيـت وذقـت مـن العـذاب مـا لا يخطـر لـك على بـال، وقـد عُذبـت عذابًـا مضاعفًـا عمـا ذاقـه باقـي إخوانـي، وذلـك أن العناصـر والشـبيحة في الأمـن العسـكري اجتمعـوا علينـا يضربوننـا ويسـبوننا، ثـم قـال أحدهـم لأحـد المجاهديـن: «مـن ربـك ولاك حيـوان؟» فمـن شـدة الألـم ومرارة العـذاب قـال المجاهـد: بشـار، فالتفـتُّ إليـه، وقلـت لـه: خسـئت أنـت وهـو، بـل ربنـا الله، غصبًـا عنـك وعنـه.

ولما لامس هذا الكلام آذان العناصر والشبيحة كأن كهرباء صعقتهم، فتركوا جميع المجاهدين وأقبلوا علي كالوحوش المفترسة يضربونني في كل مكان في جسدي، وضربني أحدهم بأخمص البارودة على فمي فسقط عدد من أسناني، وتتابع الضرب علي فكسر عدد من أضلاع صدري، ولم يقلعوا عني إلا بعد أن تعبوا من شدة الضرب، ولو نظرت إلي وقتها يا ابن أخي لما رأيت شيئاً من ملامح وجهي، فقد نزفت عيناي وكسر فكي الأسفل وهشم أنفي.

ولكن خذها مني يا ابن أخي: من وقف لله وقفة حق أنقذه الله ولو من براثن الأسد.

فقلت: أي الأسدين تقصد؟ أبشار أو الحيوان المعروف؟

فقال لي: لا فرق كلاهما حيوان.

لم يمض على سجني سوى أسبوع حتى قام بعض المجاهدين بخطف شقيق الدجال «أحمد حسون» من مسجد أسامة بن زيد في حلب، وبدأت مفاوضات التبادل بين المجاهدين وبين الأمن العسكري، وقد وافق الأمن العسكري على إخراج جميع من اعتقل على حاجز الشبيح أبي دريد باستثنائي، فرفض المجاهدون ذلك، ثم يسر الله الأمر وخرجت مع إخواني جميعًا مقابل إطلاق سراح شقيق الدجال أحمد حسون، مع تغريم الأمن العسكري قيمة المصادرات التي صودرت منا ساعة القبض علينا.

واسمع يا ابن أخي إلى قصة خروجي حتى تبقى معلقا القلب بالله، ويبقى اعتمادك عليه فقط، فهو سبحانه من بيده النفع والضر..

فقلت: هات يا أبا علي.

فقال: دخل المجاهدون بسلاحهم وسيارتهم إلى داخل الفرع، واصطحبوني مع بقية إخواني بعد أن أحكموا الخطة حتى لا يغدر بنا النظام.

وأنا خارج من الفرع نظرت إلى رئيس الفرع وهو يكاد يتميز من الغيظ على ما حصل معه، ولم أجد ساعتها ما أقوله إلا قول الله تبارك وتعالى: [وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا].

انتهت.

اليوم عرس ولدي

انطلقت السيارات تنقل المجاهدين من مقراتهم إلى المكان الذي حُدد للتجمع استعدادًا للإغارة على العدو في قرية عزيزة بريف حلب الجنوبي.

على طرفي الطريق الذي تسلكه السيارات تنتشر كروم الفستق الحلبي وتتناثر بعض البيوت داخل الكروم هنا وهناك..

بعد أذان المغرب كان جميع المجاهدين الذين سيشاركون في الإغارة قد تجمعوا في مستودع كبير، ولما سمعوا أذان المغرب ولامست آذانهم كلمة «الله أكبر الله أكبر» صغرت الدنيا في عيونهم وحقرتها نفوسهم، فالله أكبر من الدنيا وزينتها وزخارفها ومباهجها، ولما فرغ المؤذن من الأذان قام المجاهدون فتوضؤوا ثم صفوا خلف إمامهم فصلوا المغرب، وبعد الصلاة لبس كل واحد منهم جعبته واحتضن بارودته كما يحتضن الأب الشفيق ولده الصغير الحبيب إلى قلبه وأرهفوا أسماعهم انتظارًا لأمر القائد ببدء التسلل على العدو.

من بين المجاهدين كان محمود «والذي أطلق على نفسه لقب الحر» ينظر إلى بارودته ويناجيها قائلاً: اليوم يا «ريا» سأجعلك ترتوين من دماء هؤلاء الكفرة المجرمين، اليوم سنثأر للشهداء الأبرياء الذين قصفهم النظام ببراميله التي امتلأت حقدًا وعدوانًا، اليوم سأجعل من صدور النصيريين بيوتًا تسكنها طلقاتك..

وبينما هو يخاطب بارودته ناداه أحد أصدقائه: هيه.. يا حر ألم تتزوج بعد؟ التفت «الحر» مبتسمًا إلى صديقه، وقال: اليوم عرسي إن شاء الله. فذهل صديقه، وقال: لماذا جئت إلى المعركة إذن؟ فقال: لأن العرس سيكون على أرض المعركة، فقال الصديق: منذ متى صرت فيلسوفًا لا تُفهم الكلام وضِّح لي يا «حر»، معلوماتي أنك أعزب ولم تعقد العقد بل لم تخطب، فكيف سيكون عرسك اليوم وعلى أرض المعركة؟ أجاب الحر: ستفهم بعد المعركة إن شاء الله. لم تمض سوى لحظات حتى أعطى القائد الأمر ببدء التسلل نحو نقاط العدو.

سار المجاهدون في ثلاث مجموعات بين أشجار الفستق وقد سترهم الليل بظلامه عن عيون العدو.

اقتربـت المجموعــة الأولــى مـن خنـدق العـدو حتـى صار المجاهـدون يسـمعون كلامهـم، كان أحـد النصيرييـن يخاطـب بقيـة رفاقـه قائـلاً: «مـن أيـن جاءنـا هـؤلاء الإرهابيـون، كنـا نعيـش بسـعادة وكل شـيء تحـت أيدينـا وسـوريا ملـك لنـا، وأضـاف قائـلاً: يجـب أن يفهـم السُّـنيون أنهـم أجـراء عندنـا، ولنـا الفضـل في تركهـم يأكلـون مـن خيـرات هـذه الأرض.

فأجابـه آخـر: يـا رجـل هـؤلاء الإرهابيـون حمقـى يظنـون أنهـم سـينتصرون علينـا والعالـم كلـه يدعمنـا ويقـف معنـا ضدهـم، البواخـر الروسـية لا تكـف عـن تزويدنـا بالأسـلحة والمتفجـرات، بـل إنهـا صارت تجـرب صواريخهـا وقذائفهـا المطـورة بقصـف المناطـق التـي يسـيطر عليهـا الإرهابيـون.

فقـال ثالـث: دعهـم يقصفـون الإرهابييـن ومـن يسـكن في مناطقهـم، يجـب أن نقتـل الإرهابييـن ونسـاءهم وأطفالهـم ومـن يسـكن معهـم بـدون رحمـة ولا شـفقة، ثـم أخـذ سـيجارة وأشـعلها وسـحب منهـا نفسًـا بعمـق، فتوهـج رأسـها المشـتعل.

أعطـى أميـر المجموعــة الأمـر ببـدء الهجـوم، وكان الحـر أحـد أفـراد مجموعتـه، فسـدد بارودتـه باتجـاه السـيجارة التـي كانـت واضحـة في الظـلام وانتظـر حتـى توهـج رأسـها ممـا يعنـي أن صاحبهـا قـد وضعهـا في فيـه وأخـذ يسـحب منهـا نفسًـا جديـدًا ثـم أطلـق الحـر رصاصـة اسـتقرت في رأس صاحـب السـيجارة، وسـاد الرعـب في خنـدق العـدو، وانهمـر رصـاص المجاهديـن على مـن في الخنـدق مـن العـدو فعجلـوا بذلـك أرواحهـم النجسـة إلـى النـار.

وبـدأت سـرية الهـاون التابعـة للعـدو تقصـف المـكان بشـكل مكثـف جـدًّا، كمـا قامـت مدفعيتهـم بإمطـار قذائفهـا على سـاحة المعركـة.

وفي هـذه اللحظـات بـدأت المجموعتـان الأخريـان مـن المجاهديـن باقتحـام نقـاط أخـر للعـدو، وقتلـت مـن فيهـا، وزاد القصـف كثافـة حتـى صـار الليـل نهـاراً لكثـرة الانفجـارات، وسـقطت قذيفـة بالقـرب مـن الحـر فانفجـرت وأصابـت فـؤاده شـظية فارتقـى شـهيدًا. أعطـى القائـد الأمـر للجنـود بالانسـحاب، فحمـل المجاهـدون جثـة الحـر على عجـل وانسـحبوا مـن المعركـة بعـد أن لقنـوا العـدو درسـا لـن ينسـاه أبـدًا.

عـاد المجاهـدون إلـى المسـتودع بعـد منتصـف الليـل، وأخبـروا والـد محمـود الحـر أن ابنـه

قـد استشـهد، فجـاء على عجـل ودخـل المسـتودع ليـرى الحـر ممـدودًا على الأرض باسـم الثغـر مشـرق الوجـه، وقبـل أن ينحنـي عليـه أو يقبلـه قـال وحولـه المجاهـدون: إن الله وعدنـي إن صبـرت على فقـد ولـدي الجنـة، فـإن النبـي صلـى الله عليـه وسـلم قـال: (قـال الله تعالـى: مـا لعبـدي المؤمـن عنـدي جـزاء إذا قبضـت صفيـه مـن أهـل الدنيـا ثـم احتسـبه عنـدي إلا الجنـة) يـا محمـود يـا حـر إنـي أحتسـبك عنـد الله، اللهـم اشـهد أنـي صابـر على فقـد محمـود، ثـم انكـب على الحـر يضمـه إلـى صـدره ويقبلـه ويشـمه، ويقـول: نلـت مـا طلبـت يـا محمـود، هنيئًـا لـك مـا ظفـرت بـه..

ثـم نهـض والتفـت إلـى المجاهديـن قائـلاً: إياكـم أن يعزينـي أحـد في محمـود، والله لا أقبـل إلا التهنئـة، اليـوم هـو عـرس محمـود، هيـا يـا شـباب باركـوا لـي بعـرس ابنـي «الحـر»، فأقبـل المجاهـدون على أبـي محمـود يضمونـه إلـى صدورهـم، ويقولـون: هنيئـا لـك يـا عمـي أبـا محمـود، نسـأل الله أن يتقبلـه في الشـهداء، وإننـا والله على دربـه ماضـون، وبنصـر الله موقنـون.

فقـال أبـو محمـود: الحمـد لله «الحـر» رفـع رأسـنا عاليًـا، وهـذا أجمـل يـوم في حياتـي، اليـوم عـرس ابنـي الحبيـب.

سـمع صديـق محمـود مـا يقولـه أبـو محمـود، فقـال الآن فهمـت كلام «الحـر»، ثـم انطلـق إلـى أبـي محمـود وقـال: مبـارك عـرس ابنـك «الحـر» يا عـم، لقـد كان يطمـع في الشـهادة، وقـد نالهـا.

انتهت.

وأشرق نور الإيمان

اعتــدت أن أصلــي العصــر في جامــع عمــر بــن الخطــاب في حــي الهُلَّــك في حلــب عندمــا أخــرج مــع عــدد مــن الدعــاة في جولــة دعويــة نمــر خلالهــا على نقــاط الربــاط والحواجــز والمقــرات المنتشــرة هنــاك.

وللأســف فــإن غالــب المقاتليــن هنــاك ذوو تديــن ضعيــف وأخــلاق ســيئة؛ فمعظمهــم مــن فصيــل الفرقــة ســتة عشــر، وكنــت في كل مــرة أذهــب فيهــا أشــعر أن جهودنــا تذهــب ســدى وأننــا كالمتطلــب مــن المــاء جــذوة نــار، فعندمــا نمــر عليهــم ونجلــس معهــم لا نــرى اهتمامًــا بــل إعراضًــا وتذمــرًا خفيًــا، ولا يدفعهــم إلــى الجلــوس والاســتماع ســوى الحيــاء منــا، ولكــن مــا كان يدفعنــا للاســتمرار والمثابــرة قولــه تعالــى ((مَعْـذِرَةً إِلَـى رَبِّكُـمْ وَلَعَلَّهُـمْ يَتَّقُـونَ)).

وظــل هــذا الاعتقــاد راســخًا عنــدي حتــى صليــت مــرة العصــر في مســجد عمــر ووقــف بجانبــي رجــل لــم أنتبــه إلــى ملامحــه في بدايــة الأمــر، ولكنــي لاحظــت عليــه خشــوعًا وتضرعًــا، وبعــد أن انتهينــا مــن الصــلاة رفــع الرجــل يديــه وأقبــل على ربــه يدعــوه بقلــب منيــب، وأخــذت دموعــه تــذرف مــن عينيــه.

نظــرت إلــى الرجــل وأخــذت أحــاول التذكــر أيــن رأيــت هــذا الرجــل مــن قبــل؟ وفجــأة قفــزت إلــى ذاكرتــي صــورة الرجــل وهــو يقــف على أحــد حواجــز الفرقــة ســتة عشــر، وأصبــت بدهشــة شــديدة، مــا الــذي غيّــر الرجــل؟ وكيــف مــنَّ الله عليــه بالهدايــة؟ هــذا الرجــل مــن أســوأ مــن كنــت أعــرف في منطقــة الهُلَّــك، ســبحان مــن القلــوب بيــن إصبعيــن مــن أصابعه يقلبهــا كيــف يشــاء.

وتــرددت في ســؤال الرجــل عــن قصــة هدايتــه، ثــم عزمــت أمــري واقتربــت منــه بعــد انتهائــه مــن دعائــه وســلمت عليــه، فــرد علــيّ الســلام، وأخــذت أســأله أســئلة أريــد مــن خلالهــا الوصــول إلــى هــدفي، ســألته عــن حالــه وصحتــه وأخبــاره..

ثم قلت له: مع أي فصيل تعمل؟

فقال لي: كنت أعمل مع الفرقة ستة عشر ثم تركتها.

ورأيت أن الفرصة قد سنحت لي، فقلت: ولماذا تركتها؟

فنظر إليَّ باستغراب وقال لي: سؤالك غريب، وهل تريدني أن أبقى معها؟

فقلت له: ليس هذا ما قصدت إنما أسأل فقط.
فقال لي: أنا أعرفك جيدًا وأعرف أنك تعرفني، ألست من الدعاة الذين يمرون علينا كل يوم أربعاء؟
فقلت له: بلى.
فقال: أليس الشيخ أبا محمد الحلبي معكم؟
فقلت: بلى.
فقال: ألم تكونوا في جولتكم تنزلونه على حاجزنا ثم تتابعون سيركم للوصول إلى النقاط الداخلية؟
قلت: بلى.
فقال: اسمع قصتي إذن، وجزى الله الشيخ أبا محمد عني كل خير وكثَّر في المسلمين أمثاله.
فقلت: هات فأنا متشوق لسماع قصتك.

فقال: كما تعلم كان الشيخ أبو محمد ينزل إلينا ويبدأ بوعظنا بحرقة أراها بادية على وجهه ورحمة تظهر واضحة بين ثنايا كلامه، ولكن الشيطان كان قد عشعش في رؤوسنا ثم باض وفرخ، فكنا لا نعير كلام الشيخ اهتمامًا بل ربما استهزأنا بالشيخ من طرف خفي، وقد يشعر الشيخ بذلك فيتغافل ويكمل نصحه وإرشاده لنا.
ثم لا يكتفي بذلك بل يقوم ويعلمنا الوضوء والصلاة بشكل عملي، ثم يأمرنا أن نقوم لنصلي سوية، فنقوم لنتوضأ حسب زعمنا، ثم نبتعد عن الحاجز ولا يبقى مع الشيخ إلا ثلاثة أشخاص أو أقل، وربما صلى بعض هؤلاء الثلاثة خلف الشيخ وهو جنب حياء منه، وخيرهم الذي يصلي هذه الصلاة فقط احترامًا للشيخ. وكان الشيخ لا يمل من نصحنا وزيارتنا مع إعراضنا عنه، وكثيرًا ما كان يحضر لنا معه بعض الهدايا اليسيرة كزجاجات العطر الصغيرة أو عيدان الأراك ليكسب ودنا ومحبتنا لننقاد معه إلى طريق الخير والفلاح.

وذات يوم جاء الشيخ كعادته وبدأ بإلقاء الدرس علينا، وكان الدرس عن التوبة، ومن عادة الشيخ أن يكثر من الآيات القرآنية في درسه، فشعرت أن الله تبارك وتعالى يخاطبني في تلك الآيات، قرأ الشيخ قوله تعالى: ((يَاأَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (6) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ)) ثم أخذ الشيخ يفسرها قائلًا: أيها الإنسان الضعيف العاجز ألا تستحي من الله وقد غمرك بنعمته وألطافه؟! تأمل حولك سترى كل شيء مسخرا لك وأنت تعصي الله، ما الذي جرأك على ربك؟! ألأنه كريم اغتررت

بـه؟! ألأنـه حليـم لا يعاجـل بالعقوبـة أمنـت؟!

وأخــذت كلمــات الشــيخ تقــرع قلبــي قرعًــا، وأخــذت أتأمــل حالــي، حقًّــا كــم أنــا مقصـرٌ بحـق ربـي ومتعـدٍ علـى حـدوده، وهنـا أخـذ الشـيطان يوسـوس لـي، ويقـول: لا فائـدة مـن توبتـك، فأنـت مشـيت فـي جميـع دروب المعاصـي والضـلال، والله لا يقبـل أمثالـك.

وكأن الشـيخ شـعر بذلـك، فقـال: أيهـا العبـد العاصـي، أيهـا العبـد التائـه، يـا مـن غرقـت فـي بحـار الشـهوات، وترديـت فـي حمـأة الرذيلـة، لـو أقبلـت علـى ربـك لوجدتـه غفـورًا رحيمًـا، ثـم قـرأ قولـه تعالـى: ((قُـلْ يَاعِبَـادِيَ الَّذِيـنَ أَسْـرَفُوا عَلَى أَنْفُسِـهِمْ لَا تَقْنَطُـوا مِـنْ رَحْمَـةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِـرُ الذُّنُـوبَ جَمِيعًـا إِنَّـهُ هُـوَ الْغَفُـورُ الرَّحِيـمُ)) وكانـت هـذه الآيـة إنعاشًـا لقلبـي وإلجامًـا لوسوسـة الشـيطان.

وهنـا قالـت لـي نفسـي: دعـك مـن هـذا الـكلام، فأنـت تعيـش فـي بيئـة منحرفـة ولا بـد مـن مسـايرة الواقـع ومجـاراة الأصدقـاء وإلا صـرت أضحوكـة بينهـم، إذا قمـت لصـلاة سـيقول لـك أصدقـاؤك: الآن أصبحـت شـيخًا؟ ألـم تكـن البارحـة تتعاطـى الحبـوب المخدرة معنـا؟ ألـم تكـن تسـتهزئ بالشـيخ كل مـرة بعـد انصرافـه؟ هـل نـزل عليـك الوحـي؟ وبينمـا النفـس تصـول علـى إرادة توبتـي بهـذه الخواطـر قـال الشـيخ: وقـد يسـأل سـائل مـا هـي الخطـوات العمليـة للتوبـة؟ فأقـول: أول شـيء عليـك الاسـتعانة بـالله فهـو سـبحانه وتعالـى بيـده هدايـة العبـد، اطَّـرح بيـن يديـه وتذلـل لـه وأظهـر ضعفـك وعجـزك واسـأله أن يتـوب عليـك ويمـن عليـك بالهدايـة.

ثـم الخطـوة الثانيـة ابتعـد عـن الصحبـة السـيئة، وعليـك بالصحبـة الصالحـة، ثـم قـص قصـة الرجـل الـذي قتـل مائـة نفـس وفـي آخـر الأمـر نصحـه العالـم قائـلًا: (اذهـب إلـى قريـة كـذا وكـذا، فـإن بهـا أناسـا يعبـدون الله فاعبـد الله معهـم، ولا ترجـع إلـى أرضـك فإنهـا أرض سـوء).

ثـم ختـم الشـيخ درسـه بذكـر هـول الموقـف يـوم القيامـة، وكيـف أن أناسًـا يتمنـون الرجعـة إلـى الدنيـا ليعملـوا صالحًـا فـلا يسـتجاب لهـم، فقـرأ قولـه تعالـى: ((وَأَنِيبُـوا إِلَـى رَبِّكُـمْ وَأَسْـلِمُوا لَـهُ مِـنْ قَبْـلِ أَنْ يَأْتِيَكُـمُ الْعَـذَابُ ثُـمَّ لَا تُنْصَـرُونَ (54) وَاتَّبِعُـوا أَحْسَـنَ مَـا أُنْـزِلَ إِلَيْكُـمْ مِـنْ رَبِّكُـمْ مِـنْ قَبْـلِ أَنْ يَأْتِيَكُـمُ الْعَـذَابُ بَغْتَـةً وَأَنْتُـمْ لَا تَشْـعُرُونَ (55) أَنْ تَقُـولَ نَفْـسٌ يَاحَسْـرَتَا عَلَى مَـا فَرَّطْـتُ فِـي جَنْـبِ اللهِ وَإِنْ كُنْـتُ لَمِـنَ السَّـاخِرِينَ (56) أَوْ

تَقُـولَ لَـوْ أَنَّ اللهَ هَدَانِـي لَكُنْـتُ مِـنَ الْمُتَّقِيـنَ (57) أَوْ تَقُـولَ حِيـنَ تَـرَى الْعَـذَابَ لَـوْ أَنَّ لِـي كَـرَّةً فَأَكُـونَ مِـنَ الْمُحْسِـنِينَ (58) بَلَـى قَـدْ جَاءَتْـكَ آيَاتِـي فَكَذَّبْـتَ بِهَـا وَاسْـتَكْبَرْتَ وَكُنْـتَ مِـنَ الْكَافِرِيـنَ)).

ثـم قـام وقـال: جهـزوا أنفسـكم إلـى الصـلاة، فدخلـت إلـى المقـر واغتسـلت فقـد كنـت جنبًـا منـذ يوميـن ثـم صليـت وراءه، وعنـدمـا كبـرت شـعرت بطعـم هـذه الكلمـة فعـلاً: الله أكبـر، وكل شـيء في الدنيـا حقيـر تافـه لا قيمـة لـه، وبعـد أن أنهـى الشـيخ صلاتـه وقـام لينصـرف، قلـت لـه: انتظـر خذنـي معـك، ثـم سـلمت الأمانـات التـي اسـتلمتها مـن الفرقـة سـتة عشـر وسـط دهشـة رفاقـي، وقمـت مـع الشـيخ وصحبتـه بقيـة يومـه في جولتـه الدعويـة.

ثـم قلـت لـه: أنـا قـد تبـت وأنبـت إلـى الله فدلنـي على شـباب صالحيـن أجاهـد معهـم ويعينونـي على الطاعـة.

فأخـذ بيـدي وسـار حتـى وصلنـا إلـى منطقـة الجنـدول، وأسـلمني إلـى لـواء يدعـى لـواء الإسـلام وأوصاهـم بـي خيـرًا، وبالفعـل فنعـم الإخـوة هـم وجـدت فيهـم العـون على مرضـاة الله وحـرب الشـيطان.

ثم قال لي: هذه قصتي وبقيت نصيحة خذها مني.
فقلت له: تفضل أخي.
فقـال: إيـاك أن يصـدك مـا تـرى مـن إعـراض الشـباب وتذمرهـم؛ فالقلـوب بيـد الله، ولا تعلـم متـى يشـرق نـور التوبـة والإيمـان في قلـب أحدهـم فيكـون ذلـك خيـرا لـك مـن حمـر النعـم.

انتهت.

كان قيس ضابطًا في الجيش السوري وهو من الطائفة النصيرية، وقد ولد ونشأ وترعرع في إحدى قرى جبال الساحل السوري، التي كانت تعرف باسم جبال النصيريين، ثم سمتها فرنسا بعد احتلال سوريا بجبال العلويين خداعًا لعموم الشعب السوري المسلم.

ولما حصل قيس على شهادة الثالث الثانوي تطوع في الجيش السوري؛ لعلمه بأن الضباط في الجيش يتخذون من المجندين الإلزاميين بقرة حلوبًا تدر عليهم أموالًا عظيمة وتغل لهم ما قد تغل لأهلها قرى في العراق من قفيز ودرهم، إضافة إلى أنواع التكبر والصلف والطغيان الذي يمارسه الضباط على العساكر دون حسيب ولا رقيب.

أمضى قيس الدورة الأولى في الجيش ببعض المشقة نتيجة للتمرينات الرياضية التي كان يمارسها يوميًا مع بقية أفراد دورته، ولكن هذه المشقة لم تكن شيئًا يذكر بجانب ما لاقاه بقية أفراد الدورة ممن لم يكونوا من الطائفة النصيرية؛ فقد كان الضباط يتعمدون إذلالهم وإهانتهم وتحطيم معاني الرجولة والنخوة فيهم، ويسبون بألفاظ لو قلبت شعر الهجاء من أوله إلى آخره لم تجد أفحش وأبذأ منها. وتعاقب الليل والنهار وترفَّع قيس في الرتب وصار تحت يده مجموعة من العساكر مسؤولًا عنهم أو بمعنى أصح كان قائمًا على إفراغ جيوبهم ومص دمائهم واستغلال تعبهم.

وقد اعتاد قيس إذا جاءه العسكري المجند يطلب إجازة أن يسأله: من أين أنت؟ فإن قال: من حلب، قال له: حلب تشتهر بالزعتر والصابون فاجعل لي نصيبًا من ذلك، وإن قال: من حماة، قال: وهل تؤكل حلاوة الجبن إلا منها ومنذ زمن وأنا أشتهيها، وإن قال: من إدلب، قال: بلد الزيت والزيتون، لقد نفد الزيت في بيتي منذ يومين، والباقي يفهمه العسكري، وإن كان من شرق سوريا، قال له: اللحم شجرة العرب وعندكم غابات من تلك الشجرة فاقتطع منها خاروفًا، وإن قال: من دمشق، طلب منه جوالًا أو قطعة كهربائية أو أي شيء آخر.
فقد كان في ثكنته كالثقب الأسود يبتلع كل شيء، ولا يفلت أي عسكري من بين مخالبه وأنيابه إلا بعد أن يكون استفرغ ضرع ماله حلبًا.

كان قيس سعيدا فيما هو فيه من الأشر والبطر والطغيان ونهب الخيرات والتعالي على العساكر وظلمهم، شأنه في ذلك شأن بقية الضباط، فهذا ديدنهم وعليه ربوا، وقبيل كل شروق كان قيس ينهض من فراشه ليلقي على مسامع العساكر المحتشدين في ساحة الاجتماع كلامًا مكرورًا مملولًا ممجوجًا عن الحرية والوحدة والاشتراكية وحزب البعث وأفكاره النيرة (كقاع بئر عميق) وارتقائه بالشعب إلى قمة (الحضيض طبعًا) وانتصاراته الباهرة (التي أضاعت الجولان وقضت على خيرة ضباط الجيش)، والقيادة الحكيمة التي تسير بالشعب نحو (الهاوية) طبعًا.

ثم يتفنن في شتمهم وتعذيبهم أثناء التدريبات، فهذا يأمره بخلع ملابسه والتمرغ في التراب ظهرًا لبطن، وذلك يلزمه بأن ينزل إلى حفرة مليئة بالمياه القذرة النجسة كروح حافظ، وثالث يكون نصيبه الاضطجاع على دبابة قد أحالتها أشعة الشمس إلى فرن ينضج الجلود.

وإذا حل الظلام جلس قيس في مكتبه يعب الخمر بشراهة عجيبة وكأنه مجرور للصرف الصحي مهما سكبت عليه الماء لا يمتلئ، وفي أثناء ذلك يتكلم عبر جواله مع بعض الفاجرات اللواتي اتخذهن أخدانًا.

ولما شبت نار الثورة السورية وأخذت العساكر تنشق عن هذا النظام المجرم أحس قيس أن صدمة كهربائية قد أصابته، فهو دائمًا كان ينظر إلى الشعب كقطيع من البقر، وللفئة الحاكمة والجيش الفضل عليهم أن تركوهم يرعون كلأ هذا الوطن وسمحوا لهم بالحياة على أرضه، أما وقد تمرد هذا القطيع فلم يعد ينفع معه إلا الذبح.

وقد كان أشدّ ما يزعجه حين يسمع هتافات المتظاهرين، وهم يقولون: «هي لله هي لله، لا للسلطة ولا للجاه»، فكان يقول:
مَن علمَّ هؤلاء الملاعين هذه الشعارات الفارغة؟
وهل يستحقون أكثر مما تفضلنا عليهم به؟
أما يكفي أنهم يأكلون ويشربون؟
متى كان للبقر الحق في التكلم في شؤون السياسة والحكم؟
ثم أين سيجدون أفضل منا؟
إن الأسرى السياسيين في سوريا قبل اندلاع هذه المؤامرة لا يتجاوز عددهم الثلاثين

ألفًا من أصل خمسة وعشرين مليونًا، ولكن إذا لم يعجبهم هذا فسنقوم بقتل أضعاف أضعاف هذا العدد لنخرج شيطان الحرية من رأسهم.

وقد عهد إلى قيس بمهمة رمي البراميل المتفجرة للطائرات المروحية، فكان هذا يسعده جدًا وهو يرى البرميل يهوي في الجو ثم ينفجر محدثًا دويًا هائلًا وتتطاير أشلاء الأطفال والنساء والرجال، وعندما يرى ذلك كان يهتف قائلًا: «بدكن حرية، هي الحرية».

ومع كل برميل يهوي ترتقي أرواح بضعة شهداء وأضعافهم من الجرحى، ويهرع الناس والدفاع المدني لإنقاذهم.

ولكن هذا لم يطفئ نار الحقد في قلب قيس، فأوحى له كفره بفكرة إجرامية استعاذ منها الشيطان، وعندما صعد الطائرة المروحية جعل هدفه سوقًا في السكري في مدينة حلب يكثر فيه الناس جدًا، وفي الساعة الحادية عشرة صباحًا رمى قيس برميله الأول، وبقيت الطائرة واقفة مكانها، فهوى بقوة ثم انفجر وسقط عدد من الشهداء والجرحى، وتجمع كل من في السوق من أجل رفع الأنقاض وإنقاذ من تبقى على قيد الحياة وإسعاف الجرحى، وهنا رأى قيس أن الفرصة قد حانت فرمى ببرميله الثاني، فسقط وسط المحتشدين، فأوقع ما يزيد عن مائة شهيد، وأخذ قيس يقهقه بصوت مرتفع.

وارتفعت دعوات المظلومين الذين فقدوا آباءهم وأبناءهم وإخوانهم، ففتحت لها أبواب السماء.

عاد قيس فرحًا مسرورًا بالنصر الذي حققه على أناس لا ناصر لهم إلا الله، وأمضى ليله في سكر وعربدة، ثم نهض في الصباح، وفي عزمه أن يقوم بمجزرة جديدة تشبه مجزرة البارحة، وهذه المرة في منطقة هنانو في مدينة حلب أيضًا، ولما وصلت الطائرة إلى هدفها بدأ قيس يدفع البرميل نحو الباب ليهوي على رؤوس الآمنين، وقد شعر بثقل في دفعه قبيل وصوله إلى الباب فرجع إلى الوراء قليلًا ثم ركض نحو البرميل دافعًا له، وهنا حدث ما لم يكن في الحسبان، فقد هوى البرميل وهوى معه قيس.

وبينما هو يهوي أخذ شريط الذكريات يمر أمام ناظريه منذ طفولته ثم شبابه وهو في المدرسة ثم تطوعه في الجيش، وخلال ذلك أخذت صور تعذيب العساكر تتراقص أمام عينيه، وآخر ما تذكره المجزرة التي قام بها البارحة، وفي هذه اللحظة وصل البرميل إلى الأرض فانفجر وأحال قيسًا قطعًا من اللحم المتفحم، ولم ينته الأمر عند هذا فنار الآخرة أشد وأنكى، وما كان الله ليضيع دعاء المظلومين وأنات الأرامل وآهات الثكالى وبكاء اليتامى.

انتهت.

خرج أبو محمود الزبداني من بيته في إدلب متجهًا إلى المقر ثم إلى نقطة الرباط، فقد حان موعد نوبته التي ستستمر لثلاثة أيام، ثم يمضي أسبوعًا في الأعمال الحرة ليكسب رزقه حلالًا، فهو لا يريد أن يدخل جوفه أو جوف أسرته أي درهم حرام قد يؤدي إلى إبطال جهاده، فهو لا يزال يذكر الحديث النبوي الذي سمعه من أحد طلبة العلم في بداية جهاده عام 2012م، ذاك الحديث الذي يذكر غلامًا للنبي صلى الله عليه وسلم يدعى مِدْعم أخذ عباءة من الغنائم بدون إذن النبي صلى الله عليه وسلم ثم قتل بعدها بسهم، فحُرم أجر الشهادة واشتعلت العباءة عليه نارًا في قبره.

وصل أبو محمود إلى مقره؛ حيث تجمع عدد من الشباب في سيارة نوع «بيكاب» حملتهم جميعًا وهم ينشدون:

لبيك إسلام البطولة كلنا نفدي الحمى

لبيك واجعل من جماجمنا لعزك سلما

ولما وصلوا إلى النقطة أنزلوا معهم مؤنهم وشرابهم، فالماء غير متوفر في النقطة، ولذلك يجلبون معهم الماء، أما الوضوء فهو متعذر هنا، ولذلك يلجؤون إلى التيمم.

نزل الشباب في الخندق وتوزع بعضهم على فتحات الرصد والمراقبة، فيما جلس الباقون بانتظار موعد رصدهم على فتحات الرصد، وأثناء ذلك تجد بعضهم يقرأ القرآن أو يراجعه ويحفظه، وبعضهم يقرأ في كتاب معه، وغالبًا ما يكون الكتاب يتحدث عن الصحابة وبذلهم وتضحياتهم، والبعض الآخر ينشغل بإعداد الشاي ثم يجلس يشربها ولا يفعل أي شيء آخر، فيما يعبث من تبقى بجوالاتهم.

كانت نوبة أبي محمود هي الأولى، ولذلك كان واقفًا في الخندق واضعًا رأسه أمام فتحة الرصد والمراقبة، وهو يأمل أن يمر جندي للنظام في مرمى بندقيته فيكسب فيه أجرًا بنقله إلى الدار الآخرة وتخليص المسلمين من شره، إلا أن نوبته انتهت ولم يمر أحد، فقد كان جنود النظام النصيري يعرفون الأماكن المرصودة فيتجنبون المرور منها.

مرت الأيام الثلاثة سريعًا دون حدوث اشتباك مع الجيش النصيري، فقد كانت الجبهة التي يرابط فيها أبو محمود وإخوانه هادئة نوعًا ما، وعندما جاءت المجموعة الثانية رجع أبو محمود بنفس الطريقة التي جاؤوا فيها.

وعنـد وصولـه إلـى المقـر وتفقـده للرسـائل التـي وصلـت إليـه في جوالـه وجـد رسـالة قـف لهـا شـعر رأسـه رعبًـا، لـم تكـن الرسـالة سـوى قائمـة المسـتلزمات المنزليـة التـي يشـعر المـرء أحيانًـا لـو كانـت جبـلًا لكانـت أثقـل مـن جبـال الهملايـا، ولـو كانـت نهـرًا لكانـت أطـول مـن الأمـازون، ولـو كانـت قصصًـا لكانـت أكثـر رعبًـا مـن أسـاطير أحمـد خالـد توفيـق.

وعلى رأس القائمـة «علبـة مـن المسـاعد الغذائـي» لابنتـه الصغيـرة التـي لـم يتجـاوز عمرهـا العـام الواحـد.

قـرر أبـو محمـود أن يتجاهـل أكثـر مـا في القائمـة مـن الطلبـات التـي يمكـن الاسـتغناء عنهـا أو تأجيلهـا، وبالطبـع لا يمكـن أن يتجاهـل طعـام حبيبتـه الصغيـرة، ولذلـك اتجـه إلـى أقـرب صيدليـة ليشـتري لهـا ذلـك.

ولما سأله الصيدلي عن عمر الصغيرة، أجاب: عام.
فقـال الصيدلـي: عـذرًا، هـذا النـوع قـد نفـد مـن عنـدي، ولـم يبـق إلا مـا يناسـب لعمـر عـام ونصـف.
فقـال أبـو محمـود: لا بـأس أعطنـي إيـاه، فقـال الصيدلـي: سـتؤذي ابنتـك؛ لأنـه سـيكون ثقيـلًا عليهـا، وهنـا لـم يسـتطع أبـو محمـود الزبدانـي أن يتحمـل فانفجـر ضاحـكًا.

شـعر الصيدلـي بحـرج شـديد وتسـلط عليـه الحيـاء والغضـب في آن واحـد، وقـال: عـذرًا أخـي، لا أظـن أنـي قلـت شـيئًا مضحـكًا، فقـال أبـو محمـود: المعـذرة لـم أقصـد الإسـاءة، ولكـن مـا حـدث كان رغمًـا عنـي، فطفلتـي الصغيـرة التـي قلـت بـأن هذا النـوع مـن الطعام سـيكون ثقيـلًا عليهـا قـد شـربت وهـي ابنـة أسـابيع مـا لا تسـتطيع الآن أن تشـربه!

اتسعت حدقتا الصيدلي، وقال له: ما الذي تقصده؟
فقـال: أعرفـك بنفسـي، أنـا أبـو محمـود الزبدانـي، وقـد كنـت مـن المحاصريـن هنـاك، وقـد خرجـت مـن هنـاك في الشـهور القليلـة الماضيـة، ولا أظنـه يخفـى عليـك مـا كنـا نعانيـه مـن الجـوع والتعـب ونـدرة الغـذاء، حتـى اضطررنـا إلـى أكل كل شـيء أحلـه الله.
فقال الصيدلي: تقصد كل شيء حرَّمه الله.

فقـال: لشـدة الجـوع والاضطـرار لـم يبـق حيـوان محرمًـا، بـل صـاروا جميعًـا ممـا أحلـه الله،

فأكلنا الكلاب والقطط واليرابيع والحشائش والأعشاب وأوراق الشجر.

وذات يوم ولدت زوجتي في ظل الحصار الخانق، وكنت أسعى بكل ما أوتيت من قوة لأحصل لها على بعض ما تقتات عليه لتحفظ نفسها وترضع الصغيرة.

ومرت بضعة أسابيع وانقطع حليبها من شدة الجوع، وصارت الصغيرة تبكي بشدة من الجوع، بكاء تقطع له نياط قلبي، فخرجت وأنا ملهوف أستغيث بالله وأسأله رزقًا لتلك الفتاة التي لا حول لها ولا قوة.

وأخذت أجوب القسم المحرر من الزبداني وأفتشه شبرًا شبرًا، وفجأة لمحت صيدًا ثمينًا، هرة شقراء، ولم تكن سمينة بالطبع، لكنها تكفي لسد الرمق، فاحتلت حتى أمسكت بها، وانطلقت فرحًا بها إلى أهل بيتي، ولما طرقت الباب أخفيت القطة حتى لا تراها زوجتي فترغب عن أكلها.

ففتحت الباب، فقلت لها: ناوليني سكينًا، وفي نفسي أن أذبح الهرة وأسلخها خارجًا ثم أقطعها، فلا تعلم زوجتي أي نوع هذا اللحم.

فقالت: ماذا أحضرت؟ فقلت: هاتي سكينًا وستعلمين بعد ذلك، وهنا أصدرت القطة مواء، فأفسدت علي خطتي، وانتبهت إلى ذلك، فقالت: ولماذا تخفيها عني؟ هل تحسب أن الجوع ترك لي خيارًا؟!

ثم ناولتني السكين فذبحتها وهيأتها ثم دفعتها لها، فوضعتها في القدر وأوقدت عليها النار، وأكثرت مرقها، فلما نضجت غرفت من القدر في صحن وجعلت تبرد المرق ثم تسقيه الصغيرة، والطفلة تشربه وتتلمظ سعيدة به حتى شبعت فنامت.

فهل عذرتني الآن وعرفت سبب ضحكي؟
فتقدم الصيدلي، وقبل رأس أبي محمود، وطلب منه أن يأخذ العلبة مجانًا، إلا أن أبا محمود رفض ذلك وأبى إلا أن يدفع ثمنها، ثم أخذها وانطلق إلى بيته متجاهلًا باقي القائمة، وكأنه مجتمع دولي لا يبصر مجازر النظام ولا يعلم عنها شيئًا.

انتهت.

اللغة التي يفهمها العدو

الزمان والمكان: أيار / 2012 خان شيخون.

خـرج سـعدٌ مـن بيتـه ذاهبًـا إلـى المقـر، وفي طريقـه التقـى بصديقـه زيـد الـذي كان زميلـه في الجامعـة قبـل انـدلاع الثـورة السـورية، رحَّـب سـعد بصديقـه زيـد وقـال لـه: أرى البشـر باديًـا على وجهـك والسـعادة تمـلأ محيـاك، فمـا الأمـر؟ أسْـعِدنا أسـعَدك الله.

أجـاب زيـد: نعـم، اليـوم سـيأتي إلـى خـان شـيخون مجموعـة مـن ((UN ليراقبـوا مـا يجـري في سـورية، وسـنخرج بمظاهـرة حاشـدة لنبرهـن لهـم على سـلميتنا ووحشـية النظـام الأسـدي.

بـدت علامـات الخيبـة على وجـه سـعد وهـو يسـمع كلام صديقـه، ثـم قـال لـه: لا تفـرح كثيـرًا بهـؤلاء المراقبيـن، فهـم في الحقيقـة شـركاء في جرائـم الأسـد، إن المجـازر التـي ارتكبهـا النظـام النصيـري خـلال الفتـرة الماضيـة كافيـة ليراهـا الأعمـى ويسـمع بهـا الأصـم ويتحـدث عنهـا الأخـرس، فلمـاذا يرسـلون مراقبيـن إلا لخـداع الشـعوب والضحـك عليهـم، إن هـذا النظـام يـا صديقـي نظـام مجـرم وحشـي لا يتـورع عـن فعـل أي شـيء في سـبيل التمسـك بكرسـيه الزائـل، ولـذا أنصحـك ألا تغامـر وتخـرج في المظاهـرة أمـام حاجـز الجيـش، فأنـا واثـق أنـه سـيطلق النـار عليكـم ولـن يردعـه وجـود هـؤلاء المراقبيـن، وإذا أردت الحـل الأمثـل فتعـال لتنضـم إلـى ركـب الجهـاد المسـلح، فالقـوة هـي اللغـة الوحيـدة التـي يفهمهـا هـذا النظـام الغاشـم، ونحـن لـم نحمـل السـلاح إلا بعـد أن اضطرنـا هـو إلـى ذلـك طـوال الأشـهر الماضيـة، تخـرج المظاهـرات تطالـب بإسـقاط النظـام بشـكل سـلمي ويتلقاهـا الجيـش والشـبيحة بالرصـاص الحـي ويسـقط عشـرات الشـهداء في كل جمعـة، والمجتمـع الدولـي مجتمـع الكـذب والنفـاق لا يحـرك سـاكنًا، بـل يدعـم النظـام ويسـاعده. قـال زيـد: إن مـا ذكرتـه عـن وحشـية النظـام وإجرامـه صحيـح تمامًـا، ولكـن لا أظـن أنـه يتجـرأ على إطـلاق النـار علينـا أمـام المراقبيـن الدولييـن، وأنـا مصـرٌ على الخـروج في المظاهـرة أمـام حاجـز الجيـش بطـرف المدينـة.

سـعد: بـل سـيفعل، وأسـأل الله أن يحميكـم، ولـو كان لـي مـن الأمـر شـيء لمنعـت النـاس مـن الذهـاب إلـى هنـاك.

وبعـد سـاعات تناقـل النـاس خبـر وصـول المراقبيـن، واحتشـد المئـات مـن النـاس يهتفـون

بإسـقاط النظـام، وسـارت المظاهـرة باتجـاه حاجـز الجيـش لاسـتقبال المراقبيـن، ولمـا رأى عناصـر الحاجـز مئـات النـاس قادميـن نحوهـم وهـم ينـادون بإسـقاط النظـام فتحـوا النـار عليهـم أمـام لجنـة المراقبـة الدوليـة، وسـقط عشـرات الشـهداء والجرحـى، وهـاج النـاس وماجـوا، وعـم الاضطـراب المـكان، ووصـل خبـر هـذه المجـزرة إلـى المجاهديـن في مدينـة خـان شـيخون ومـا حولهـا، فجهـزوا أنفسـهم وطلبـوا المـؤازرات مـن المـدن حولهـم مـن الهبيـط ومدايـا وركايـا وسـاروا للأخـذ بثـأر الشـهداء الأطهـار.

فيمـا انشـغل النـاس بإسـعاف الجرحـى ونقـل الشـهداء إلـى أهليهـم ليودعوهـم ويُسـلِّموهم لأرحـم الراحميـن.

خـرج سـعد على رأس مجموعـة مـن المجاهديـن إلـى المعركـة، واشـتبك مـع عناصـر النظام الذيـن اسـتقدموا تعزيـزات خوفًـا مـن رد فعـل المجاهديـن، ودارت معركـة حاميـة الوطيـس تمكـن المجاهـدون خلالهـا مـن تدميـر دبابـة (T72) وقتـل العشـرات مـن عناصـر النظـام، ورصـد سـعد مجموعـة مـن العناصـر متحصنـة في مبنـى ولا يمكـن قتلهـم إلا بالاعتـلاء على أحـد أسـطح المنـازل.

أراد سـعد أن يصعـد على أحـد الأسـطح ليضـرب بقذيفـة (RBG)، فخـرج لـه رجـل طاعـن في السـن وطلـب منـه ألا يضربهـم مـن سـطح منزلـه فهـو يخشـى أن يقـوم النظـام بقصـف منزلـه.

اسـتجاب سـعد وأخـذ يبحـث عـن مـكان آخـر، وفي كل مـرة يعتـذر سـكان المنزل، فوحشـية النظـام وهمجيتـه لا مثيـل لهـا، وفجـأة سـمع صوتًـا يناديـه، التفـت فـإذا بوالـد صديقـه زيد.

أقبـل سـعد مسَـلمًا على والـد صديقـه، وقبـل أن يسـأله عـن ولـده زيـد، قـال لـه: لقـد استشـهد زيـد يـا بنـي، وأريـد منـك أن تضـرب هـؤلاء الكفـرة مـن فـوق سـطح منزلـي ليذوقـوا عاقبـة جريمتهـم، هيـا يـا بنـي تقـدم واسـتعن بـالله عليهـم.

أقبـل سـعد حتـى دخـل الـدار، وسـأل والـد زيـد: أريـد سـلمًا أصعـد عليـه إلـى السـطح، فقـال لـه والـد زيـد: لا والله يـا ولـدي لـن تصعـد إلا على كتفـي، فأنتـم المجاهـدون تسـتحقون منـا كل إكـرام وإجـلال.

حـاول سـعد أن يتملـص مـن طلـب والـد صديقـه إلا أنـه رفـض، وصعـد زيـد السـطح وضـرب عناصـر الجيـش بثـلاث حشـوات أوقعتهـم مـا بيـن قتيـل وجريـح، ثـم نـزل ودخـل إلـى غرفـة في دار والـد صديقـه الـذي فـرح فرحًـا عظيمًـا بعـد هـلاك العناصـر المجرميـن، وقـال وهـو واقـف على رأس ولـده الشـهيد: الآن يـا ولـدي سـأدفنك وأنـا مرتـاح، فقـد أخـذ الأبطـال المجاهـدون بثـأرك، وأودعـوا رصاصهـم في رؤوس الكفـرة وصدورهـم. والحمـد لله فشـهداؤنا في الجنـة وقتلاهـم في النـار، والعاقبـة للمتقيـن، ونصـر الله آت ولـو بعـد حيـن.

انتهت.

البس هذه جعبة أبيك

كان إقبـال يعمـل نجـارًا في منطقـة الصالحيـن في حلـب، وقـد اسـتأجر حانوتـًا وضع فيـه آلات النجـارة وأخـذ يعمـل ليطعـم زوجتـه وأولاده حـلالًا، فلطالمـا حـذره أبـوه مـن خطـورة أكل الحـرام وبيـن لـه سـوء عاقبتـه.

كان لإقبـال أربعـة مـن الأولاد؛ صبـي اسـمه أحمـد عمـره أحـد عشـر عامًـا، وثـلاث بنـات أروى وعمرهـا ثمانيـة أعـوام وفاطمـة وعمرهـا سـتة أعـوام وليلـى وعمرهـا عامان.

ولمـا دخـل الثـوار مدينـة حلـب وحـرّروا منطقـة الصالحيـن وقتلـوا العميـد علـيّ النصيـري والـذي كان رئيسًـا لمخفـر الصالحيـن وكان سـيئ السـمعة جـدًا قـرر إقبـال أن ينضـم إليهـم. فالتحـق بلـواء التوحيـد وخـاض معـه عـددًا مـن المعـارك في أرجـاء مدينـة حلـب، حـرّر خلالهـا اللـواء عـددًا مـن المناطـق ثـم توجـه لتحريـر مدرسـة المشـاة شـمالي حلـب، وكان مـن الواضـح أن تحريرهـا صعـب؛ فهـي اسـتراتيجية جـدًا لـدى الجيـش النصيـري مـع سـعة مسـاحتها وضعـف الأسـلحة الموجـودة لـدى المجاهديـن.

خـاض لـواء التوحيـد معـارك كثيـرة على تخـوم مدرسـة المشـاة، وفي كل مـرة يسـقط منـه شـهداء وتهلـك أعـداد مـن العـدو، حتـى كانـت المعركـة الأخيـرة التـي مـنَّ الله فيهـا على المجاهديـن بالنصـر وتحـررت مدرسـة المشـاة، وأثنـاء تمشـيط المدرسـة أغـار الطيـران على مجموعـة مـن المجاهديـن كان إقبـال أحـد أفرادهـا فسـقط إقبـال شـهيدًا وجـرح آخـران. وقامـت كتيبـة الإخـلاء بإسـعاف الجريحيـن ونقـل جثـة إقبـال مـن أرض المعركـة.

كانـت زوجـة إقبـال تنتظـره بشـوق، وقـد غمـر الفـرح قلبهـا عندمـا وصـل إلـى مسـامعها أن مدرسـة المشـاة قـد حُـررت، فقامـت مسـرعة ورتبـت البيـت وهيأتـه وتزينـت وأخـذت تنتظـر زوجهـا على أحـر مـن الجمـر.

لـم يطـل انتظارهـا طويـلًا حتـى طُـرِق البـاب، فقامـت لتفتـح البـاب فسـمعت أصـوات رجـال يصيحـون: أحمـد يـا أحمـد، خـذ طريقـًا يـا بنـي، امتـلأ صدرهـا بالخـوف وشـعرت أن مكروهـا قـد أصـاب زوجهـا.

فتـح أحمـد البـاب ليُدْخـل رفـاق والـده جثـة والـده وهـي معطـرة بدمائهـا، بـدا وجـه إقبال

باسـمًا مشـرقًا وكأنــه يغـط في نــوم عميق.

قام المجاهدون بتعزية أحمد ووالدته ثم خرجوا قليلًا لتودع المرأة زوجها.

خرجـت المـرأة بعـد أن خـلا البيـت مـن المجاهديـن وألقـت ببصرهـا إلـى زوجهـا، ثـم انكبـت عليـه تقبلـه وتبكـي ويبكـي أحمـد وأخواته.

وبينمـا هـي تمـرغ وجههـا في صـدره رأت جـزءًا مـن ورقـة خارجـة مـن جعبتـه، ففتحتهـا فـإذا وصيتـه قـد كتـب فيهـا: «بسـم الله الرحمـن الرحيـم، هـذا مـا أوصـى بـه إقبـال بـن أحمـد النجـار: إننـي أشـهد أن لا إلـه إلا الله وحـده لا شـريك لـه وأن محمـدًا عبـده ورسـوله، وأشـهد أن عيسـى عبـد الله ورسـوله، وكلمتـه ألقاهـا إلـى مريـم وروح منـه، وأشـهد أن الجنـة حـق والنـار حـق، وأن الله يبعـث مـن في القبـور.

أوصـي إخوانـي المجاهديـن بمتابعـة الجهـاد حتـى إسـقاط هـذا النظـام المجـرم ورفـع رايــة لا إلــه إلا الله.

وأوصيهم بزوجتي وأولادي خيرًا، أحسنوا إليهم ولا تهملوا تفقد شؤونهم.
وأوصـي زوجتـي الحبيبـة بالصبـر على فقـدي وأن لا تجـزع ولا تشـق جيبًـا ولا تلطـم خـدًا ولا تدعـو بدعـوى الجاهليـة.

أوصيـك أيتهـا الحبيبـة أن تربـي أولادي على حـب الجهـاد وبغـض الكفـار، واعتـن بأحمـد عنايـة جيـدة حتـى إذا شـب أكمـل الطريـق الـذي بدأتـه مجاهـدًا في سـبيل الله.
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

زادت هـذه الكلمـات في وصيـة زوجهـا مـن حزنهـا وألمهـا، وأخـذت الدمـوع تـزداد غـزارة مـن عينيهـا، ثـم تماسـكت وتجلـدت وقامـت بنـزع الجعبـة عـن زوجهـا، وأذنـت لرفاقـه بالدخـول مـن أجـل حملـه إلـى مقبـرة الشـهداء.

ولما دخل الرجال، قالت لهم: أين بارودة إقبال؟
فقالوا: هي معنا في السيارة.
فقالت: أريد الاحتفاظ بها وبجعبته، وإن أردتم ثمنها أعطيتكم.

فقالوا: لا، هذه الأشياء هدية لأولاد أخينا إقبال، وأعطوها البارودة وأخذوا جثة إقبال وعيون أطفاله الصغار تمطر لؤلؤا وهي تودعهم.

حملت زوجة إقبال الجعبة بدمائها والبارودة بأتربتها ووضعتهم في خزانة الملابس الخاصة بزوجها وأقفلتها.

ومرت الأيام وصار عمر أحمد خمسة عشر عاما وقوي عوده واشتد ساعده، وأخذ يتغيب عن البيت، فإذا سألته أمه: أين كنت؟ قال: كنت عند بعض رفاقي.

وأحست الأم أنه يخفي شيئًا عنها، وخشيت أن يكون ابنها قد صاحب رفاقًا سيئين وانحرف معهم، ولكنها عادت إلى نفسها وطردت هذا الخاطر من رأسها، فهي قد أولت أحمد كامل عنايتها منذ وفاة والده، فكانت تتابع صلاته في المسجد دائمًا، وقد حفظ خمسة عشر جزءًا من القرآن في المعهد المجاور لبيتهم.

وأخيرًا قررت أن تفتش هاتفه الجوال بعد أن ينام، وبالفعل لما عاد أحمد إلى البيت جلست أمه بقربه وأخذت تسترق النظر حتى علمت رمز فتح هاتفه، ولما خلد أحمد إلى النوم أخذت هاتفه ثم فتحته، وأخذت تطالع محادثاته مع رفاقه.

فاكتشفت أن ابنها انضم إلى بعض الفصائل المجاهدة، وأنه يرابط معهم، ولذلك يتغيب عن البيت، فاطمأنت لذلك وحمدت الله.

ولما طلع الفجر أيقظت الأم ابنها أحمد فذهب وصلى الفجر في المسجد، ولما رجع إلى البيت كانت أمه في انتظاره، وما إن وصل حتى قالت له: تعال معي أريد أن أعطيك شيئًا.

لم يدر أحمد ما هو الشيء الذي ستعطيه أمه إياه، ولكنه سار معها حتى دخلت إلى غرفة النوم، وقالت له: خذ هذا المفتاح وافتح هذه الخزانة.

فتح أحمد الخزانة ليرى جعبة مليئة بالدماء القديمة وبارودة مكسوة بالغبار.
قالت له أمه: البس هذه الجعبة، وخذ هذه البارودة، وأكمل طريق أبيك، وإياك أن تخفي عني شيئًا بعد الآن.

نظـر أحمـد إلـى أمـه بحـب يخالطـه إعجـاب وإكبـار، وقـال: أحقًـا مـا تقوليـن يـا أمـي؟ حقًـا لـن تمانعـي مـن سـلوكي طريـق الجهاد؟
فقالت له أمه بحزم: وهل ربيتك إلا لذلك؟
اذهب يا ولدي فاثأر لرب ودين، وإياك أن تتخاذل أو تتراجع.

امض يا ولدي؛ فإما أن تقر عيني بالنصر أو بالشهادة.
قبـل أحمـد يـد أمـه وجبينهـا، ثـم لبس جعبـة أبيـه وأخـذ بارودتـه، وانطلـق إلـى الجبهة، وهـو يقـول لوالدتـه: لـن تسـمعي إلا ما يسـرك إن شـاء الله.

انتهت.

عـاد ماهـر إلـى منزلـه ووجهـه ملطـخ بالدمـاء، فقـد تمكـن المتظاهـرون منـه هـذه المـرة، فكسـروا أنفـه وأسـالوا دمـه، ولـم تغـن عنـه الهـراوة التـي كان يحملهـا ليضربهـم بهـا، فقـد سـلبوه إياهـا وانهالـوا عليـه ضربـا بهـا، وكذلـك لـم يغـن عنـه عناصـره فقـد فـروا وتركـوه لمـا رأوا جمـوع المتظاهريـن الغاضبـة تتجـه نحوهـم.

اسـتقبلته زوجتـه مذعـورة وأخـذت تصيـح وتولـول، وكذلـك كان هـو يسـب ويشـتم المتظاهريـن والثـورة.

ولـم تمـض سـاعة حتـى جـاءه عناصـره مـن الشـبيحة يعتـذرون إليـه ويسـوغون فرارهـم ويشـتمون المتظاهريـن، فأخـذ يهددهـم ويتوعدهـم بأنـه سـيحرمهم راتبهـم إن تكـرر ذلـك منهـم، ورافـق ذلـك سـيل مـن الألفـاظ البذيئـة المقذعـة وجههـا إليهـم.

كان ماهـر يقـف دائمـا أمـام مسـاجد منطقـة الشـعار التـي ينطلـق منهـا المتظاهـرون تحيـط بـه مجموعـة مـن الشـبيحة؛ فـإذا خـرج المتظاهـرون وبـدؤوا بالهتافـات والتكبيـر قـام هـو وقطعـان الشـبيحة ورجـال الأمـن بقمعهـم وتفريـق مظاهرتهـم، وكان مـن عادتـه هـو وأفـراد مجموعتـه إذا ألقـوا القبـض على متظاهـر أن يقومـوا بسـرقة جميـع مـا يحمـل مـن أمـوال أو أشـياء أخـرى كالهاتـف الجـوال والسـاعة وحتـى الحـذاء إذا أعجبهـم، ثـم يقومـوا بتسـليمه لسـيارة الشـرطة التـي تسـلمه بدورهـا إلـى أفـرع الأمـن؛ حيـث يلقـى مـن التعذيـب مـا تشـيب لهولـه الولـدان.

أمضـى ماهـر مـع أفـراد مجموعتـه فتـرة مـن الزمـن هـي بضعـة شـهور؛ ثـم تمكـن الجيـش الحـر مـن دخـول مدينـة حلـب وحـرر حـي صـلاح الديـن ثـم السـكري وأخـذ يتقـدم باتجـاه الشعار.

شـعر ماهـر بخـوف واضطـراب ولـم يـدر مـا يفعـل، أيهـرب مـن المنطقـة ويتـرك بيتـه وحيـه أم يبقـى وعندئـذ سـيقبض عليـه الثـوار ويعدمونـه؟ فقـد بـدا واضحـا للعيـان أن نظـام بشـار يتهـاوى.

جمـع ماهـر أفـراد مجموعتـه، وأخـذ يستشـيرهم، فقـال لـه أحدهـم: الأمـر هيـن، نعلـن

انشـقاقنا عـن الشـبيحة وننضـم إلـى الثـورة، وبصراحـة «حسـب السـوق نسـوق»، ثـم أضـاف: عنـدي صديـق قديـم مـن عنـدان سـوف أتصـل بـه الآن، ونرتـب أمـر انشـقاقنا. فـرح ماهـر بهـذا الاقتـراح، وطلـب مـن العنصـر أن يعجـل بذلـك قبـل وصـول الجيـش الحـر إلـى الشـعار، فسـارع العنصـر بالاتصـال بصديقـه، وأخـذ يتكلـم بلهجـة يظهـر فيهـا النـدم والحـزن ويمـدح الثـوار ويلعـن الأسـد، ثـم طلـب منـه الحمايـة لمجموعـة مـن الشـبيحة تريـد الانشـقاق عـن الأسـد، ففـرح صديقـه بذلـك وطلـب منـه مقطعـا مصـورا.

فقـام ماهـر على الفـور وأحضـر علمـا أخضـر من الأعـلام التـي كان صادرهـا مـن المتظاهرين، ووضعـه خلفـه على الحائـط، ثـم وقـف في المنتصـف، ووقـف عـن يمينـه ويسـاره أفـراد مجموعتـه مـن الشـبيحة، وأعلـن انشـقاقه قائـلا: أنـا الشـبيح ماهـر أبـو النـار أعلـن انشـقاقي مـع أفـراد مجموعتـي عـن نظـام الأسـد المجـرم والتحاقـي بثـورة الشـعب السـوري، ثـم صـاح: تكبيـر، فـردد أفـراد مجموعتـه خلفـه: الله أكبـر الله أكبـر.

ثـم أرسـل العنصـر هـذا المقطـع إلى صديقـه عبـر السـكايب، وحصل ماهـر وأفـراد مجموعته بذلـك على الحمايـة، ولـم يتعـرض لهم الثـوار بأذى.

قـام ماهـر مـع أفـراد مجموعتـه بالمشـاركة في ضـرب مخفـر الشـعار، واسـتولى منـه على بعـض الأسـلحة، وقـام بتشـكيل كتيبـة عسـكرية أخـذ يضـم إليهـا الشـبيحة القدامـى، ويوفـر لهـم الحمايـة.

كانـت كتيبـة ماهـر الـذي تلقـب بأبـي الغضـب كتيبـة لا عمـل لها سـوى خطـف الناس سـرا وسـلبهم وسـرقة البيـوت وتعاطـي المخـدرات والحشـيش، واسـتمرت الكتيبـة على ذلـك قرابـة السـنتين؛ حيـث غـادر كثيـر مـن أفرادهـا إلـى تركيـا بعـد اشـتداد حملـة البراميـل على مدينـة حلـب.

فيمـا رأى أبـو الغضـب هـذه الحملـة فرصـة لـه فـكان يسـتغل نـزوح النـاس مـن أحيائهـم ومناطقهـم ويسـرق البيـوت والدكاكيـن، ثـم يبيـع المسـروقات ويعطـي أفـراد مجموعتـه نصـف المـال ويأخـذ النصـف الثانـي كامـلا لـه، ثـم يجمعـه ويدخـره.

وبالإضافـة إلـى جرائـم ماهـر هـذه فقـد كانـت لـه جريمـة سـرية لا يعرفهـا أحـد وهـي سـرقة الأمـوال التـي تصل إليـه دعمـا للجرحـى والقتلـى؛ فقـد كان يرفـع أسـماء القتلـى

والجرحى وجميعهم قد أصيبوا بالقصف، فماهر ومجموعته لم يشاركوا في أي معركة، ويأخذ عليهم دعما بأسمائهم، ثم لا يعطيهم منه شيئا، بل يكتفي بإعطاء خمسة وعشرين ألف ليرة مرة واحدة لعائلة من قتل معه، وخمسة آلاف ليرة سورية للمصاب كل شهر.

ومرت الأيام وأحكم النظام الحصار على مدينة حلب للمرة الثانية بعد أن تمكن جيش الفتح من كسر الحصار أول مرة، واشتد القصف جدا، وأخذت المناطق تتساقط واحدة تلو أخرى بيد النظام النصيري، حتى لم يبق مع الثوار إلا المنطقة الممتدة من جسر الحاج إلى صلاح الدين، وبدأ كثير من الناس يخرجون من مناطق الثوار إلى مناطق النظام، وفيهم كثير ممن كان سابقا حاملا للسلاح، وكان من بين الخارجين معظم أفراد كتيبة ماهر.

أما ماهر فقد رفض أن يخرج؛ لأنه عاشر النظام قبلا ويعلم أنه قد رضع من ثدي الغدر، وشب في أحضان نكث العهود والمواثيق.

لم تمض سوى بضعة أيام حتى هجَّر النظام من تبقى في حلب إلى الريف وإدلب، وخرج ماهر في رتل التهجير في سيارته وبقربه زوجته، وفي حجرها ابنه الذي بلغ من العمر أربع سنوات ومعه عدد من الأسلحة، ولما وصل ماهر إلى الريف استأجر بيتا لمدة شهر واحد، وأخذ يرتب أموره ليسافر إلى تركيا وهو يحلم بالاستمتاع بالمال الذي جناه من الحرام طوال السنين الماضية.

أخذ ماهر يبيع ما أخرجه معه من قطع الأسلحة باستثناء مسدس كان يحبه جدا ويضعه دائما على خصره متفاخرا به، فقد أجل بيعه إلى ما قبل خروجه مباشرة، ثم باع سيارته، واتفق في يوم السبت مع المهرب أن يكون موعد السفر إلى تركيا يوم الاثنين.

وفي يوم الأحد كان ماهر مشغولا مع زوجته بترتيب أمورهما من أجل السفر، ثم طلب ماهر من زوجته المسدس لينظفه ثم يبيعه، فأحضرت له زوجته مسدسه، فقام بفكه وتنظيفه، ثم لقمه وأخذ ينظر إليه والحزن يعتصر قلبه على فراقه، وبينما هو كذلك إذ نادته زوجته، فترك المسدس على المنضدة وقام إليها، فجاء الولد الصغير وأمسك المسدس وأخذ يلعب به، فسمع ماهر صوت ابنه فجاء مسرعا

وصاح به، فاضطرب الولد وخاف وضغط على الزناد فخرجت طلقة استقرت في قلب ماهر فسقط قتيلا.

لم ينفعه ما جمع من أموال وما نهب من بيوت وما سرق من حوانيت، بل باء بإثم ذلك جميعا.

انتهت.

كان علـيٌّ يحيـا حيـاة عاديـة قبـل انـدلاع الثـورة السـورية، وكان يـرى الظلـم العظيـم الـذي يقـع على شـباب أهـل السـنة في سـورية، ولكنـه لـم يكـن يقـدر على فعـل شـيء، فهـو ليـس سـوى فـرد واحـد، وكـم آلمـه عندمـا طرقـت دوريـة للأمـن بهمجيـة شـديدة بـاب جـاره ثـم دخلـت الدوريـة البيـت بوحشـية واقتادتـه مـن فراشـه أمـام زوجتـه وأولاده، ولـم تـرع حرمـةً للبيـت والأطفـال والجـوار، ونشـرت الرعـب والخـوف في أرجـاء العمـارة.

وقـد سـأل علـي بعـد ذلـك عـن سـبب اعتقـال جـاره بهـذه الطريقـة الوحشـية، فأُخبـر أنـه كان يمتلـك كتبًـا لابـن تيميـة، وهـي كتـب ممنوعـة.

لـم يكـن علـي قـد سـمع بابـن تيمية مـن قبـل، ولكنـه مـن خـلال معاشـرته لجـاره كان يراه دمـث الأخـلاق ملتزمًـا بدينـه، طيّـب المعشـر، محبًّـا للعلـم، فقـد كان في السـنة الثالثـة في كليـة الهندسـة الميكانيكيـة، وقـد حـزن جـدًّا لمـا أصابـه، وشـعر ببغـضٍ شـديد تجـاه تلـك الحيوانـات التـي ترتـدي أجسـاد البشـر وتـروّع الآمنيـن وترهبهـم.

وبعـد عاميـن خـرج الجـار مـن المعتقـل فذهـب علـي ليسـلم عليـه ويهنّئـه بالسـلامة، فهالـه مـا طـرق أذنيـه مـن مظالـم تحْـدث في السـجون وتعذيـب وحشـي يتعـرض لـه المعتقلـون.

ولكـن عليـا لـم يسـتغرب عندمـا ذكـر لـه جـاره الكفـر الشـنيع الـذي يتلفـظ بـه المجرمـون ابتـداء بمديـر الفـرع وانتهـاء بالسـجانين، فقـد سـمع مثلـه أو أسـوأ منـه عنـدمـا كان مجندًا أثنـاء مـا يسـمى «خدمـة العلـم الإلزامية».

ولما انتهى الجار من حديثه، قال له علي: هل تسمح لي أن أسألك سؤالًا؟

فقال: تفضل.

قال: من هو ابن تيمية الذي سجنت لأجل كتبه؟ وعلى ماذا تحتوي كتبه؟

فتبسـم الجـار، وقـال: ابـن تيميـة عالـم مـن علمـاء المسـلمين، تـوفي قبـل قرابـة سـبعمائة عـام، وكان حريصـا على التمسّـك بالكتـاب والسـنة وفهمهمـا فهمًـا صحيحًـا بعيـدًا عـن الشـركيّات والبـدع والخرافـات، كمـا كان شـديد الأمـر بالمعـروف والنهـي عـن المنكـر، وكثيـرًا مـا كان ينكـر على الأمـراء في عصـره إذا جـاروا وحـادوا عـن الحـق، ولذلـك

يكرهـه هـؤلاء المجرمـون ويمنعـون تـداول كتبـه.

امتـلأ قلـب علـي بكـره هـؤلاء الجهلـة الذيـن يريـدون أن يبقـى النـاس في ظلمـات الضلالة والخرافـات حفاظًـا على مصالحهـم الشـخصية، وودّ لـو أنـه يسـتطيع أن يفعل شـيئًا.

ومـرّت الأيـام، وشـبّت نـار الثـورة في درعـا، ثـم أخـذت ترتفـع حتـى وصلـت إلـى حلـب، وشُـكّلت في حلـب تنسـيقيات مـن أجـل تنظيـم المظاهـرات المطالبـة بإسـقاط النظـام، بعـد أن واجـه هـذا النظـام المجـرم مطالـب الإصـلاح بالحديـد والنـار وفتـح للمطالبيـن بالإصـلاح المعتقـلات والسـجون وسـلّط عليهـم زبانيتـه بأنـواع العـذاب.

انضـمّ علـي إلـى تلـك التنسـيقيات، وكان يشـارك مـع جـاره الـذي سـجن قبـلًا بتهمـة حيـازة كتـب ابـن تيميـة في المظاهـرات التـي كانـت تخـرج مـن المسـاجد بعـد صـلاة الجمعـة.

وكان النظـام المجـرم في أول الأمـر يواجـه مظاهـرات حلـب بالضـرب بالهـراوات وعصـيّ الكهربـاء وإطـلاق النـار بشـكل كثيـف في الهـواء؛ لأنـه يخشـى مـن سـقوط شـهداء في حلـب وبالتالـي تـزداد النقمـة عليـه وتشـمل المظاهـرات شـرائح جديـدة في المجتمـع، إلا أن الحقـد الأسـود والوحشـية غلبـت على النظـام النصيـري وأطلـق الشـبيحة النـار بشـكل مباشـر على المتظاهريـن، فسـقط عـدد مـن الشـهداء كان مـن ضمنهـم صديـق علـي.

حـزن علـيٌّ على صديقـه جـدًّا، وشـعر أن براكيـن الغضـب قـد تفجّرت في صـدره، فأخـذ يحرّض النـاس بشـكل سـري على المظاهـرات، ويخـرج متلثما في المظاهـرات يهتف بسـقوط النظام، ويـردّد المتظاهـرون مـن خلفـه. وفي إحـدى المظاهـرات الليليـة مـرّ علـي أمـام صاحب كشـك يبيـع الدخـان، وكان كلٌّ منهمـا يعـرف الآخـر، فقـال لـه علـي: هلـمّ شـاركنا، فأجابـه: أنتـم مخرّبـون تريـدون دمـار البلـد، فأعـرض علـي عنـه وتابـع مسـيره وهتافـه.

وبعـد انتهـاء المظاهـرة عـاد علـي إلـى بيتـه متعبًـا منهـكًا، ومـا إن وضـع جنبـه على السـرير حتـى أسـلم عينيـه للرقـاد، وقبيـل الفجـر سـمع علـي طرقًـا شـديدًا على البـاب، فعلـم أن بائـع الدخـان قـد بلّـغ عنـه رجـال الأمـن، وأخـذ يفكـر في طريقـة للهـرب، ولكـن لـم يلبـث رجـال الأمـن إلا قليـلًا حتـى اقتحمـوا الـدار وقبضـوا على علـي، وأوسـعوه شـتمًا وضربًـا، واقتـادوه إلـى فـرع الأمـن العسـكري.

مكـث علـي في الفـرع قرابـة الشـهر، ذاق خلالهـا أنـواع الظلـم والأذى، فطـوال الشـهر بقـي عريانًـا إلا مـن سـراويل داخليـة، وكل يـوم هنـاك حفـل للتعذيـب يوطـأ خلالهـا رأسـه بالنعـال، ويقـال لـه بتهكّـم: «بدكـن حريـة هـي حريـة»، ويضـرب بالأكبـال حتـى تسـيل الدمـاء مـن أنحـاء جسـده ثـم تلتهـب جروحـه، ولا يوجـد مـن يداويهـا، بـل يتعمـد السـجان أن يضربـه عليهـا.

خـرج علـي بعـد شـهر مـن الفرع، وهـو أشـد مـا كان غضبًا، ولـم يكـن غضبه على السـجانين والضبـاط بأقـل مـن غضبـه على بائـع الدخـان الـذي وشـى بـه إلـى فـرع الأمـن العسـكري، ولكـن مـا الـذي يمكـن أن يفعلـه، فحلـب مـا زالـت تحـت سـيطرة النظـام بشـكل كامل.

لـم تمـضِ سـوى بضعـة شـهور حتـى دخـل الثـوار حلـب المدينة مـن صـلاح الدين، ومباشـرة انضـم علـي إليهـم، ثـم كان على رأس حملـة توجهـت لتحريـر منطقـة السـكري مـن قبضـة العـدو النصيـري، وقـد نجحـت تلـك الحملـة وانسـحب النظـام مـن السـكري وجسـر الحـج وسـيطر عليهـا الثـوار.

وهنـا تذكـر علـيٌّ بائـع الدخـان الـذي وشـى بـه، وكان كشـكه يقـع بالقـرب مـن حديقـة السـكري، فأرسـل بعـض المجاهديـن ليقبضـوا عليـه ويحضـروه قبـل أن يهـرب.

انطلـق خمسـة مـن المجاهديـن إلـى بائـع الدخـان فقبضـوا عليـه وسـاقوه إلـى علـي الـذي كان يتحـرّق شـوقًا للأخـذ بثـأره مـن هـذا الجاسـوس الخسـيس، كان يريـد أن يقطّعـه بيـده وأسـنانه.

ولمـا أُحضـر الجاسـوس بيـن يديـه ذليـلًا صاغـرًا تأمّلـه، ثـم قـال لـه: نحـن مخرّبـون يـا مجـرم!؟

ألم ترَ إلى جرائم النظام؟

ألم توقظ ضميرك دموع الأيتام والثكالى؟

ألم تحرّك نخوتك دماء الشهداء؟

أيها الوغد الحقير..

ثـم رفـع علـي يـده عاليًـا في الهـواء ليضـرب بـكلّ قوتـه وجـه هـذا الجاسـوس، أغمـض الجاسـوس عينيـه محضِّـرًا نفسـه لصفعـة قويـة، ولكـن الصفعـة لـم تصـل إلـى وجهـه،

وطـال انتظـاره، ثـم فتـح عينيـه فشـاهد عليًّـا قـد أنـزل كفّـه، ولمـا التقـت عينـاه بعينيه، قـال لـه: لا، لـن أضربـك غضبًـا لنفسـي، ولـن أثـأر منـك لمـا سـبّبته لـي مـن الظلـم والأذى، أنـا مجاهـد في سـبيل الله، وأريـد أن يبقـى أجـري كامـلاً غيـر منقـوص.

ثـم قـال لبعـض المجاهديـن: خـذوه إلـى القضـاء الشـرعي ليحكـم فيـه بشـرع الله، أمـا أنـا فلن أمسّـــه.

سـيق الجاسـوس إلـى القضـاء، وبعـد التحقيـق تبيـن أنـه وشـى بعـدد مـن المتظاهريـن فقبـض العـدو عليهـم وبعضهـم مـات في السـجن تحـت التعذيـب، فحكـم القضـاء عليـه بالإعـدام، فأعـدم ودفـن في مقبـرة الشـبيحة قـرب جسـر الحـج.

انتهت

أوقفت سيارتي في إحدى قرى إدلب عندما سمعت المؤذن يؤذن بصوت ندي لصلاة العصر، وتوجهت لمسجد تشمخ مئذنته عاليا في السماء تناطح الغيوم ويعلو فوقها صوت المؤذن وهو يقول: أشهد أن لا إله إلا الله، هذه الكلمة العظيمة التي تملأ قلب المسلم فخرا وعزا واستعلاء بإيمانه فينظر إلى الطواغيت المتألهة في الأرض نظرة احتقار وازدراء، فهل هناك أسخف من كائن بشري لا يملك لنفسه حولا ولا قوة ولا يدري كيف تعمل أجهزة جسده، ثم هو بعد ذلك يزعم العلم والمعرفة، ويريد أن يشرِّع للناس من دون الله فيحل لهم ويحرم عليهم وفق أهوائه.

دخلت المسجد فوجدته مسجدا واسعا فسيحا تستقبلك ساحة تنتشر على جانبيها الموضآت، ثم قبلية المسجد المفروشة ببعض السجاد الذي عفا عليه الزمن وتآكل لطول السنين التي مرت عليه.

وقفت خلف إحدى السواري وركعت ركعتين ثم جلست انتظارا لإقامة الصلاة، كان واضحا في المسجد أن جماعة الدعوة والتبليغ أو الأحباب قد نزلوا ضيوفا في المسجد ليذكروا الناس بالله ويدعوهم إلى التوبة والإقبال على الله وفق برنامج محدد معروف لديهم لا يختلف عندهم باختلاف الأزمنة والأمكنة.

والحق أني أحب هذه الجماعة في الله لما أراه عندهم من الإخلاص لله وترك حظوظ النفس، ومحبة الخير للمسلمين والمسارعة إلى خدمتهم، وبغض الجدل والقيل والقال، ولست أزعم العصمة لها فهي جماعة بشرية لا تخلو من أخطاء البشر، ومع هذا ففيها خير عظيم جدا، وقد أنقذ الله بها كثيرا من الناس من النار، وانتقلوا من الظلمات إلى النور، ومن الضلال إلى الهدى، ومن مستنقع الشهوات إلى طهر الإيمان.

لم تمض سوى دقائق حتى أقيمت الصلاة وسويت الصفوف وكبر الإمام وكبرنا وراءه، ولكلمة الله أكبر في قلب المؤمن معنى خاص يجعله يستصغر الدنيا وما فيها، فليست الأرض سوى ذرة صغيرة في هذا الكون العظيم الذي يدل على أن خالقه أعظم وأكبر من كل شيء.

وما إن انتهينا من الصلاة حتى قام أحد أفراد مجموعة الأحباب ومعه نسخة من رياض الصالحين، فحمد الله وأثنى عليه، ثم شرع يقرأ في رياض الصالحين بعض الأحاديث، وكان مما قرأ قوله عليه الصلاة والسلام: «من زار مريضا أو عاد أخا له في الله ناداه مناد من السماء: أن طبت وطاب سعيك وممشاك وتبوأت من الجنة منزلا»، وقوله عليه الصلاة والسلام: «أن رجلا زار أخا له في الله، في قرية أخرى، فأرصد الله على مدرجته ملكا فقال: أين تريد؟ فقال: أريد أخا لي في هذه القرية، فقال: هل لك من نعمة تربها عليه؟ قال: لا، غير أني أحبه في الله، فقال: فإني رسول الله إليك، أن الله يحبك كما أحببته» ثم قال: إن من برنامجنا أن نقوم زيارات الآن لننال الأجر وتحفنا الملائكة، فمن يحب أن يستقبلنا في داره؟

نظرت إلى ساعتي، فوجدت أن الوقت لا يساعدني لأرافقهم في زياراتهم، وإلا فاتني الموعد الذي أنا مسافر لأجله، لكني شعرت بشيء في داخلي يجذبني إليهم ويدفعني إلى مرافقتهم في زياراتهم، وبما أن القاعدة الأصولية تقول: «لا يصار إلى الترجيح إلا عند تعذر الجمع» فقد خرجت واتصلت بصاحبي الذي أنا ذاهب إليه، وطلبت منه تأجيل الموعد ساعتين، فوافق، فأخذت أنتظر الأحباب عند باب المسجد، فلما خرج قسم منهم، اقتربت منهم وطلبت منهم مصاحبتهم في زيارتهم، فسروا بذلك وقالوا : على الرحب والسعة.

وكان منهم رجل من أهل القرية هو المقصود بالزيارة، وبدل أن نذهب إلى بيته اقترح قائلا: هاهنا رجل دمر الطيران الوحشي بناية له قبل أسابيع، فما رأيكم أن نذهب إليه ونواسيه وتطيبون خاطره بما علمكم الله من القرآن والسنة؟
فوافق الأحباب، وهذه عادتهم، فهم كالجمل الأنف ينقادون إلى الخير بيسر وسهولة.

سرنا بضع دقائق حتى وصلنا إلى دار على جانب الطريق، وقد انتصبت بقربها بعض أشجار السرو، وأحاطت بها عدة شجيرات من الزيتون.

طرقنا الباب فخرج رجل يتجاوز عمره الخمسين عاما، وما إن وقع بصره علينا حتى رحب بنا أجمل ترحيب، وكأننا من أصدقائه المقربين، ثم قال: تفضلوا أهلا وسهلا بكم.

دخلنا إلى غرفة أشار لنا إليها وأخذنا مجالسنا، ثم دخل الرجل، وقبل أن نبدأ

الحديث قال أحد الأحباب: إن لنا شرطا لا نقبل بسواه، فقال الرجل: وما هو؟ فقال: ألا تقدم لنا ضيافة سوى كأسا من الشاي فقط، ثم التفت إلي وقال لي: تفضل ذكرنا بالله يا شيخ، فقلت له: أنا مرافق لكم والحديث عندكم، وحسبي أن أستمع لدرر كلامكم وعذب مقالكم، إلا أن الرجل أصر علي أن أتكلم وقد وضعني بذلك في موقف محرج لا أحسد عليه، حيث إني لم أكن قد زورت في نفسي مقالة.

وبينما أنا أنقب في ذاكرتي عن بعض الأحاديث والآثار التي تناسب الموقف، وأنبش في محفوظاتي عما ينقذني من هول الموقف استأذن الرجل ليحضر الشاي، وكانت هذه فرصة عظيمة لي لأرتب أفكاري وأجهز كلمة في نفسي، ومع أن الرجل لم يغب وقتا طويلا إلا أن ذلك كان كافيا بالنسبة لي.

وبعد أن قدم الرجل الشاي جلس في زاوية الغرفة، وقال: تفضلوا مشايخنا، ومرة أخرى قال لي أمير مجموعة الأحباب التي أنا فيها: ذكرنا بالله، فبدأت بحمد لله والصلاة على رسوله، ثم التفتُّ إلى الرجل صاحب الدار وقلت له: قد بلغنا أن بناية لك قد قصفت ودمرت، فاعلم أخي أن الدنيا ليست بدار قرار والمؤمن فيها ممتحن، والبلاء ملازم له، ولك في نبي الله أيوب أسوة، وعليك بالصبر فهو يجعل المحنة منحة، والعذاب عذبا، والشدة رخاء، لما للصابرين عند الله من حسن الجزاء وعظيم الثواب.
فنظر إلي الرجل وقال: هل تعزيني بدمار بنايتي؟
فقلت: نعم،
فقال: اسمع يا شيخ: لم ينعم الله علي نعمة بعد الإسلام أعظم في نفسي من قصف الكفرة تلك البناية وتدميرها.

فدهشت، ودهش كذلك المجلس أجمع، وقلت: كيف ذلك؟
فقال لي: لهذا قصة طويلة، وبما أن المشايخ رفضوا أي ضيافة إلا الشاي فلتكن هذه القصة التي سأحكيها لكم الآن ضيافة لكم، لقد عمرت هذه البناية من قرابة أربع سنين، وكنت أقوم بتأجيرها من النازحين الذين يفرون من مدنهم وقراهم خوفا من بطش النظام وطغيانه، وكنت أتقاضى إيجار البيت الواحد عشرة آلاف ليرة سورية، ثم رفعته إلى خمسة عشر ألفا، فعشرين ألفا، وكان من عادتي -وبئس العادة- أني أجعل العقد ستة أشهر فقط فإن مضت المدة ولم يأت مستأجر يدفع مبلغا أكبر جددت العقد، وإلا أخرجت المستأجر دون رحمة أو شفقة.

ومـع كل موجـة تهجيـر ونـزوح جديـدة كنـت أزيـد في طلـب الأجـرة وأسـتغل حاجـة النـاس واضطرارهـم، ثـم تنهـد الرجـل وقـال: لسـت أدري أكان قلبـي مـن الصخـر أم كان الصخـر كقلبـي؟
ثـم تابـع قائـلا: وفي يـوم مـن الأيـام جاءتنـي أرملـة ومعهـا ثلاثـة أطفـال، لا يتجـاوز عمـر أكبرهـم اثنـي عشـر عامـا، وطلبـت أن تسـتأجر بيتـا مـن تلـك البيـوت، وأخبرتنـي أن زوجهـا قتـل عنـدمـا قصـف النظـام قريتهـم، وشـكت إلـي ضعفهـا وفقرهـا وشـدة حاجتهـا، إلا أن الرحمـة لـم تجـد إلـى قلبـي سـبيلا، وطلبـت عشـرين ألفـا.

حاولـت المـرأة أن تجعلنـي أقلـل مـن الأجـرة شـيئا، إلـى أنـي رفضـت، فانصرفـت المـرأة، وجاءتنـي بعـد سـاعتين ومعهـا شـيخ، فأخـذ يعظنـي ويقـول لـي: كـن رحيمـا بالخلـق يكـن الله رحيمـا بـك، لا تتاجـر بآلامهـم وجراحهـم.

فقلـت لـه: يـا شـيخ، إن لـكل أصحـاب صنعـة وتجـارة موسـما، وموسـمي هـو موجـات النزوح والهجرة.
فصدم الشيخ مما سمع، وقال لي: اتق الله، وإلا فوالله لن يبارك الله لك في مالك.
فقلـت لـه: الملـك ملكـي، وأنـا حـر بـه، أتصـرف كيـف أشـاء، وإن أحببـت المـرأة أن تسـكن البيـت بعشـرين ألفـا، وإلا فغيرهـا ينتظـر.

فوافـق الشـيخ على مضـض على ذلـك، ثـم خطـب النـاس يـوم الجمعـة وعـرَّض بقصتـي، وحـث النـاس على الصدقـة، ومسـاعدة المـرأة حتـى جمـع لـي أجـرة سـتة أشـهر، ودفعهـا إلـي، وهـذا مـا كان يهمنـي فتعريضـه بـي في الخطبـة لـم يهـز فيَّ شـعرة.

وقبيـل انتهـاء السـتة أشـهر بلغنـي أن هنـاك منظمـة تريـد أن تسـتأجر أربـع شـقق في مـكان واحـد وتدفـع أجـرة كل شـقة مائـة دولار، فوجدتهـا فرصـة لا تعـوض، وأعلمـت أربعـة مـن المسـتأجرين بوجـوب إخـلاء الشـقق بعـد انتهـاء السـتة أشـهر، وكانـت المـرأة مـن بينهـم، فأخـذت تبكـي بدمـوع غـزار، وتتوسـل إلـي ألا أفعـل، وتذكرنـي زوجهـا الشـهيد، وتسـتدر منـي العطـف بصغـر أطفالهـا، وكأن قلبـي جلمـودا مـن الصخـر، ولمـا يئسـت مني قالـت: اللهـم انتقـم مـن كل مـن يتاجـر بنـا، ويسـتغل حاجتنـا، ثـم خرجـت.

تواصلـتُ مـع المنظمـة وأخبرتهـم أن لـدي أربـع شـقق وأنـا مسـتعد لتأجيرهـم إياهـا،

واتفقنـا على مائـة دولار لـكل شـقة، وحـددت لهـم موعـد تسـليم الشـقق، وخـرج النازحون المسـاكين مكرهيـن، وقمـت بتنظيـف الشـقق وإعدادهـا.

وقبـل حلـول موعـد تسـليم المنظمـة الشـقق بثلاثـة أيـام قامـت طائـرة روسـية بقصـف البنايـة فدمرتهـا، ومـا إن رأيـت الصـاروخ ينقـض علـى البنايـة حتـى تذكـرت دمـوع أرملـة الشـهيد، وكأنـي أسـمع دعوتهـا بأذنـي، فخـررت لله سـاجدا أسـأله العفـو والمغفـرة؛ فقـد خشـيت أن تغيـر الطائـرة غـارة على بيتـي هـذا عقوبـة مـن الله علـى سـوء أفعالـي، وعاهـدت ربـي وأنـا سـاجد أن إذا سـلمني لأكونـن نعـم المعيـن للأرامـل والأيتـام والنازحين والمهجريـن.

فمـنَّ الله علـي وسـلمني، وكان أول عمـل لـي بعـد انصـراف الطائـرة هـو البحث عـن الأرملة وأطفالهـا الثلاثـة، حتـى وجدتهـا تسـكن في خيمـة لا تقـي مـن حـر ولا قـر، فطلبـت منهـا أن تسـامحني، ثـم اسـتأجرت لهـا بيتـا لمـدة عـام، ودفعـت أجرتـه سـلفا، وقدمـت لهـا مـا يسـر الله مـن المـال، وبنيـت داريـن بالمـال الـذي جمعتـه في السـنين الماضيـة مـن أجـرة البيـوت وجعلتهمـا للنازحيـن يسـكنون فيهمـا مجانـا، كلمـا خـرج نـازح دخـل آخـر، والله لا آخـذ منهـم قرشـا واحـدا.

فقـل لـي بربـك: أليـس تدميـر البنايـة نعمـة مـن الله؟ فقـام أميـر مجموعـة الأحبـاب، فاحتضنـه وقبـل رأسـه وقـال لـه: وأنـا سـأعطيك ضيافـة، حديثـا للنبـي صلـى الله عليـه وسـلم، وهـو: «مـن تـرك شـيئا لله عوضـه الله خيـرا منـه».

ثم ودعنا الرجل وانصرفت لأكمل سفري، وانصرف الأحباب إلى مسجدهم.

انتهت.

نشـأ الأخـوان عمـر وشـادي في بيـت واحـد، فهمـا مـن أب واحـد وأم واحـدة، وكان شـادي أكبـر مـن عمـر بسـنتين، ومـع ذلـك فقـد تقدمـا لنيـل الشـهادة الإعداديـة سـويا، فقـد كان شـادي مخفقـا في دراسـته وقـد رسـب سـنتين في الصـف التاسـع، ثـم رسـب للمـرة الثالثـة عندمـا تقـدم مـع أخيـه عمـر، فيمـا نجـح عمـر بتفـوق وأخـذ شـادي ينظـر بعيـن الحسـد إلـى أخيـه.

بعد ذلك تابع عمر دراسته وانصرف شادي للعمل في إصلاح السيارات.
ومـرت الأيـام وتمكـن عمـر مـن دخـول كليـة الهندسـة في جامعـة حلـب، وعندمـا كان في السـنة الثانيـة منهـا انتفـض الشـعب السـوري، وكان لطـلاب الجامعـة وخاصـة الكليـات العمليـة النصيـب الأوفـى مـن المظاهـرات المنـددة بجرائـم النظـام، والمطالبـة بإسـقاطه.
ولم يكن عمر يشارك في شيء من ذلك، فقد كان لا يهتم سوى بدراسته.

وذات يـوم عـاد عمـر إلـى البيـت ففوجـئ بأخيـه شـادي يخبـره بأنـه انضـم إلـى قطعـان الشـبيحة الذيـن كانـوا يقتحمـون المظاهـرات بأسـاليب وحشـية لـم يكـن عمـر قـد علـم عنهـا شـيئا بعـد.

فقـال عمـر لأخيـه: اسـمع يـا شـادي، أنـا لا أحـب المظاهـرات، ولسـت أشـارك فيهـا، ولكنـي في الوقـت ذاتـه لسـت ضدهـا، والنـاس لهـم الحـق في أن يطالبـوا بالتغييـر.

فأجاب شادي: أي ناس هؤلاء؟ عملاء مندسون، يريدون أن يخربوا البلد.

دهـش عمـر لـدى سـماعه أخيـه يـردد كلامـا كالببغـاء، دون أن يعـرف شـيئا عـن حقيقـة الأمـر.

وصرخ قائلا: عملاء مخربون؟! مدسوسون؟! ما هذا الهراء؟!

إن جميـع أصدقائـي بالكليـة يخرجـون في المظاهـرات وهـم مـن أسـر معروفـة مشـهورة، وأصدقائـي جميعـا يحبـون بلدهـم ويريـدون لـه الخيـر، وهـم أفضـل مـن الجهـال الذيـن يتحكمـون بالبلـد وخيراتـه.

فقـال شـادي: أراك تتحـدث كالمخربيـن، اسـمع يـا عمـر، لئـن رأيتـك في مظاهـرة فلـن أتوانـى عـن ضربـك واعتقالـك.

صدم عمر مما قال له أخوه، وقال: أوتفعل يا شادي؟!
فقال: نعم أفعل، وأنت وأصدقاؤك وجامعتك فداء لحذاء السيد الرئيس.
شـعر عمـر بنفـور شـديد مـن أخيـه، فتركـه وانطلـق إلـى غرفتـه، وأقبـل على دراسـته بجـد ونشـاط.

ومـرت الأيـام وازدادت المظاهـرات كثافـة وانتشـارا، وازداد الشـبيحة وحشـية وعنفـا وهمجيـة في التعامـل معهـا، وبـدأ عمـر يشـعر ببغـض شـديد للشـبيحة ورجـال الأمـن، وقـرر أخيـرا أن يشـارك في المظاهـرات، فـكان يضـع اللثـام على وجهـه ويخـرج ليـلا ينـادي مـع المتظاهريـن، فمـرة يقـول: يـا درعـا حنـا معـاكِ للمـوت، وأخـرى يقـول: الشـعب يريـد إسـقاط النظـام، وثالثـة يـردد معهـم: هـي لله هـي لله لا للسـلطة ولا للجـاه، حتـى يأتـي الشـبيحة بعصيهـم وهراواتهـم وأسـلحتهم الناريـة فيفرقـون المظاهـرات.

وتطـور الأمـر مـع شـادي فأصبـح مسـؤولا لأحـد حواجـز النظـام النصيـري، واتخـذ لقـب أبـي حيـدر، وطـار صيتـه بيـن النـاس، أنـه شـرير لا يعـرف الرحمـة، وشـديد الأذى للنـاس.

ثـم تطـورت الأمـور ودخـل الجيـش الحـر إلـى حلـب، وسـيطر على مناطـق واسـعة منهـا، ونشـر قناصتـه على الأبنيـة العاليـة لقنـص العسـاكر والشـبيحة.

بقـي عمـر في بيتـه ضمـن مناطـق سـيطرة النظـام، ولـم يلتحـق بالعمـل المسـلح، فقـد كان يريـد أن يتخـرج مـن جامعتـه أولا، ولكنـه على تواصـل دائـم مـع عـدد مـن أصدقائـه الذيـن تركـوا جامعتهـم والتحقـوا بالجهـاد.

وفي يـوم مـن الأيـام خـرج عمـر مـن بيتـه إلـى الجامعـة، وكان لا بـد أن يمـر في طريقـه على الحاجـز الـذي تقـع مسـؤوليته على أخيـه الشـبيح أبـي حيـدر، وبينمـا هو ينتظـر دوره في رتـل السـيارات التـي أمامـه ليمشـي، شـاهد أخـاه وهـو ينـزل شـابا جامعيـا مـن إحـدى الحافـلات، ثـم ينهـال عليـه ضربـا وهـو يسـبه ويشـتمه، ثـم يأمـر زبانيتـه أن يعتقلـوه، ومـرت السـيارات، ومـر عمـر أيضـا بسـيارته، وحـاول أن يكلـم أخـاه بشـأن الشـاب لعلـه يتركـه، إلا أن أخـاه قـال لـه بفظاظـة: انقلـع أحسـن مـا أعتقلـك وأضعـك معـه.

لـم يكمـل عمـر طريقـه، بـل عـاد إلـى البيت وقـد خيـم الحـزن على فـؤاده، وتصدعـت أركان قلبـه لهـول مـا رأى وسـمع مـن أخيـه، وفكـر أن ينتقـم لهـذا الشـاب ولجميـع المتظاهريـن الذيـن يتعرضـون لأذى مـن أخيـه أبـي حيـدر.

وخـاض عمـر صراعـا مريـرا مـع نفسـه، إن المجـرم الـذي يريـد أن ينتقـم منـه أخـوه ومِـن أمـه وأبيـه، وفي الوقـت نفسـه فقـد مـلأ الدنيـا شـرا وفسـادا.

وقـع عمـر في حيـرة شـديدة مـن أمـره، ولجـأ إلـى الله تبـارك وتعالـى يطلـب منـه التوفيق والهدايـة، ثـم أخـذ المصحـف ليقـرأ شـيئا مـن القـرآن، وأول مـا فتحـه وقـع بصـره على قولـه تعالـى: (لَا تَجِـدُ قَوْمًـا يُؤْمِنُـونَ بِـاللهِ وَالْيَـوْمِ الْآخِـرِ يُـوَادُّونَ مَـنْ حَـادَّ اللهَ وَرَسُـولَهُ وَلَـوْ كَانُـوا آبَاءَهُـمْ أَوْ أَبْنَاءَهُـمْ أَوْ إِخْوَانَهُـمْ أَوْ عَشِـيرَتَهُمْ) فقـوي قلبـه، واشـتد عزمـه، ثـم قـام بفتـح النـت ففوجـئ بمقطـع مسـرب للشـبيح أبـي حيـدر وهـو يعـذب رجـلا مسـنا ويأمـره بـأن يقـول أن ربـه بشـار وماهـر، فـازداد غيظـا على هـذا الوحـش البشـري، وبـدأ الترتيـب مـن أجـل إراحـة المسـلمين مـن شـروره.

كان بالقـرب مـن البيـت مفـرق مرصـود مـن قنـاص الجيـش الحـر، إلا أن هـذا القنـاص كان لا يطلـق النـار إلا على مـن يرتـدي اللبـاس العسـكري، ولـذا كان مـن السـهل على الشـبيحة ورجـال الأمـن والعسـاكر المـرور بهـدوء واطمئنـان وهـم يرتـدون ملابـس مدنيـة.

قـام عمـر بالتواصـل مـع أحـد أصدقائـه وأخبـره أن الشـبيح أبـا حيدر سـيمر غدا في السـاعة السـابعة قبيـل المغـرب مـن أمـام المفـرق، ويجـب أن يقـوم القنـاص بضربـه، فسـأله كيـف سـنعرفه، وأنـت تعلـم أن الشـبيحة يرتـدون ملابـس مدنيـة عنـد مرورهـم مـن المـكان المرصـود لعلمهـم أننـا لا نسـتطيع تمييزهـم وبالتالـي لا نقنصهـم.

فقـال لـه: سـيكون مرتديـا قميصـا أصفـر فاقـع اللـون، وذلـك في السـاعة السـابعة تمامـا، اتفقنا ؟

فقال له صديقه: على بركة الله.

في اليـوم التالـي اشـترى عمـر قميصـا أخضـر وآخـر أصفـر، وذهـب إلـى شـادي وأهـداه القميـص، وطلـب منـه أن يلبسـه ودعـاه لتنـاول طعـام العشـاء في أحـد المطاعـم قـرب البيـت.

ارتــدى شــادي قميصــه الأصفــر وارتــدى عمــر قميصــه الأخضــر وانطلقــا، وفي الطريــق حــاول عمــر أن يقنــع شــادي بتــرك التشــبيح، إلا أنــه وجــد منــه إصــرارا على متابعــة طريقــه حتــى يطهــر التــراب الســوري مــن جميــع الإرهابييــن بزعمــه.

ولمــا وصــل عمــر وشــادي إلــى المفــرق، كانــت الســاعة تشــير إلــى الســابعة تمامــا كمــا خطــط عمــر، أســرع عمــر فقطــع المفــرق، ثــم تبعــه شــادي، ولمــا وصــل إلــى منتصــف المفــرق دوت رصاصــة قنــاص واخترقــت عنــق شــادي فســالت دمــاؤه على قميصــه الأصفــر وســقط قتيــلا.

نظــر إليــه عمــر وقــد فــارق الحيــاة، وقــال لــه: لقــد كنــت عزيــزا علــي حبيبــا إلــى قلبــي، ولكــن دينــي أحــب إلــي منــك، وقــد نلــت جــزاء إجرامــك وتعديــك على حــدود الله وانتهاكك الحرمات.
انتهت.

احتشد الطلاب في المعهد وأخذوا يتجاذبون أطراف الحديث ويتعرف بعضهم إلى بعض؛ فقد كان معظم طلبة المعهد من المهجرين الذين أجبروا على ترك ديارهم والفرار بدينهم وأرواحهم من بطش النظام النصيري ووحشيته؛ فهذا من درعا وذاك من حماة وثالثهم من بانياس والرابع من حلب، وأما الجالسان قرب الباب، فأحدهما من الرقة والثاني من دير الزور، وأمامهما شاب من دمشق.

كان معهد الإمام سفيان الثوري قد افتتح في مدينة إدلب لتدريس المواد الشرعية وتخريج طلبة علم يعملون على سد الثغور العلمية من إمامة وخطابة ودروس مسجدية وكلمات تحريضية على الجبهات وفي المقرات والثكنات، وأعمار الطلاب تتراوح ما بين الخامسة عشرة إلى الثلاثين.

مضت بضع دقائق قبل أن يدخل المعلم إلى القاعة ويبدأ بمقدمة تعريفية عن المعهد، ثم يتكلم قليلا عن طلب العلم وفضله ووجوب نشره وأهمية الجهاد باللسان ودفع شبه الباطل وكشف أكاذيب الأفاكين وأهل الضلال الذين لا يكفون عن السعي لتشويه صورة الإسلام وإلصاق التهم الباطلة فيه، ثم أخذ يحضهم على الجد والاجتهاد في تحصيل العلم والصبر على شدائده.

ثم تنهد بحزن وقال: اعلموا يا أبنائي أن الباطل يسعى لغرز مخالبه في عقائد المسلمين ويحرص على تقطيع أوصال أخلاقهم بأنيابه، ولا شيء يخيفه أكثر من العلماء الربانيين الذين لا تنطلي عليهم خدعه، ولا يغترون بمسعول كلامه، ولا تروج عليهم أكاذيبه؛ ولذلك فإن من أهدافه العظمى أن يبقى الناس غارقين في مستنقع الجهل يتخبطون حيارى في ظلمات الضلال.

إن الباطل يغدق أموالا عظيمة ليمنع نور العلم من التسلل إلى قلوب الناس وعقولهم؛ لأن وصول النور يعني تمزيق الظلام وهلاك الباطل.

وأنتم يا أبنائي في خير عظيم؛ فقد يسر الله لكم من يدرسكم العلم وأنتم آمنون مطمئنون لا تخافون وشاية مخبر أو تجسس عميل لأفرع الأمن، ودعوني أسرد عليكم قصتي في طلب العلم فإن في ذلك ما يحفز هممكم ويستثير عزائمكم إن شاء الله.

لقد نشأت في أسرة متدينة تحب الله ورسوله وتحرص على الالتزام بشعائر الإسلام وحضور مجالس الوعظ التي تعقد في المساجد، ولكن الخطير في الأمر أن هذه المجالس كان يتصدرها المشايخ المتصوفة الذين يجري الغلو في الصالحين في عروقهم، فكانوا يقصون علينا من القصص ما لا يقبله دين ولا يدخل في عقل، ومع ذلك تتأثر الناس بذلك ويسرون به، والحق أني كنت واحدا من الناس أتصرف مثلهم تماما.

ومضى على ذلك وقت ليس باليسير ثم انتشرت القنوات الفضائية الدينية، ونفع الله بها كثيرا من الناس، وأنا واحد منهم، فكنت أستمع إلى العلماء وهم يفسرون كلام الله ويشرحون سنة نبيه صلى الله عليه وسلم ويقررون التوحيد بيسر وسلاسة لا تصطدم مع فطرة ولا يرفضها عقل، فأحببت العلم وأقبلت بشغف على متابعة برامج المشايخ والاستفادة منها وتدوين فوائدها في دفتر أعددته لذلك.

وازداد حبي للعلم وأردت أن أجد شيخا أجلس بين يديه وأتلقى منه، وكان هذا في غاية الصعوبة؛ لأن السجن سيفتح ذراعيه لاحتضان من يفعل ذلك.

ثم يسر الله لي أحد طلبة العلم فدلني على مجلس علم يعقده أحد المشايخ في بيوت تلاميذه خوفا من أعين الرقباء، فالتزمت في تلك الحلقة، وكان الشيخ يشرح لنا من تفسير ابن كثير وفقه السنة وكتاب التوحيد، وشعرت بالفرح يغمر قلبي ويملأ جوانحي، غير أن ذلك لم يدم طويلا، فقد تمكن أحد مخبري النظام من رصد أوقات تجمعنا فوشى بنا إلى الأمن العسكري فداهمنا المجرمون وألقوا القبض علينا جميعا وبالجرم المشهود كما قالوا، ثم ساقونا مقيدين معصوبي الأعين إلى ما يسمى بفرع فلسطين.

ولن أكلمكم عن حفل التعذيب الذي استقبلنا به هناك ولا عن المعاملة التي يبكي من هولها الحجر ولا عن الكفر الذي لو سمعه أبو جهل لخر ساجدا يقول: ربنا لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا. إنما حديثي عن طلب العلم هناك.

لما دخلت الفرع كنت أحفظ سبعة أجزاء من القرآن ووجدت السجن فرصة لأتابع حفظي هناك، فما إن استقر بي المقام في المهجع بعد نقلي إليه من المنفردة، حتى سألت السجناء ومعظمهم معتقلون لقضايا إسلامية ما بين جهاديين وحركيين وعلميين: هل عندكم مصحف هنا؟ فقالوا: نعم، ففرحت، وقلت: أين هو؟ فقالوا: أي

جـزء تريـد؟ فتعجبـت وقلـت: أريـده كامـلا، فقالـوا: للأسـف يوجـد عندنـا اثنـان وعشـرن جـزءا فقـط، فقلـت: ولمـاذا؟ هـل اقتطـع أحـد مـن النسـخة ثمانيـة أجـزاء، فضحـك محدثي وقـال: يـا هـذا، أتظـن نفسـك في دولـة تعتـرف بحقوقـك، ابتسـم يـا أخـي فأنـت في سـوريا، ألا تعلـم أن المصحـف ممنـوع هاهنـا، ثـم أخـذ بيـدي وأخذنـي إلـى الجـدار الأول، وأشـار بيـده إليـه، وقـال: هاهنـا الأجـزاء الثلاثـة الأول مـن القـرآن، ثـم انتقـل إلـى جـدار مجـاور إليـه، وقـال: وهنـا الأنفـال والتوبـة ومحمـد، وسـار شـيئا قليـلا حتـى وصـل إلـى الجـدار الثالـث، وقـال: وهاهنـا الإسـراء والكهـف ومريـم وطـه والأنبيـاء والحـج، ثـم عـاد بي إلـى حيـث كان يجلـس وأخـرج أوراقـا كانـوا يجمعونهـا مـن علـب التبـغ، وقـال: وهـذا باقي المصحـف، سـوى الأجـزاء الثمانيـة وهـي مـن الواحـد والعشـرين إلـى التاسـع والعشـرين، ثـم قـال لي: كـم تحفـظ مـن كتـاب الله، فقلـت: الأجـزاء الخمسـة الأول، والجزأيـن الأخيرين، فقـال: حسـبي الله ونعـم الوكيـل، إذن لـن تفيدنـا في إكمـال كتابـة المصحـف.

فأقبلـت بجـد على حفـظ كتـاب الله، حتـى أنـي كنـت أحفـظ بإتقـان شـديد جـزءا كل أسـبوع وأنـا مشـفق مـن عـدم وجـود باقـي المصحـف، والمهجـع كأنـه خليـة نحـل في تـدارس القـرآن، فالجميـع إمـا معلـم أو متعلـم، سـوى ثلاثـة أشـخاص لـم نعـرف كنـه تهمهـم على الحقيقـة، ولكـن مـن الواضـح أن النظـام وضعهـم بيننـا ليكونـوا عينـا لـه علينـا، والحـق أنـا مـا كنـا نعبـأ بذلـك كثيـرا؛ لأننـا كنـا نحتـرس منهـم أشـد الاحتـراس، فـلا نتكلـم شـيئا أمامهـم.

مضـت عـدة أسـابيع قبـل أن يتـم نقـل معاويـة مـن المنفـردة إلـى المهجـع الـذي أنـا فيـه، ومـا إن اسـتقر بـه المقـام حتـى هرعـت إليـه ولـم أسـأله عـن تهمتـه، فقـد بـدا واضحـا على وجهـه أنـه قـد اعتقـل منـذ فتـرة طويلـة لتهمـة إسـلامية، فبشـرته بيضـاء لبعـد عهـده بالشـمس، والنـور يتـلألأ في وجهـه، إضافـة إلـى علامـات التعذيـب الوحشـية، وهـذه الطريقـة في التعذيـب تـكاد تكـون حكـرا على أصحـاب التهـم الإسـلامية.

دنـوت منـه وسـألته: كـم تحفـظ مـن كتـاب الله؟ فقـال: بحمـد الله، قـد انتهيـت مـن حفظـه مـن ثلاثـة أشـهر، ففرحـت فرحـا شـديدا، ثـم انتبهـت لنفسـي، هـل هـذا الرجـل يعـرف مـا يقـول، أم أن مـا عانـاه مـن التعذيـب جعلـه مهلوسـا، فتشـجعت وسـألته كيـف حفظتـه ولا مصحـف لديـك، وأنـت في منفـردة، فضحـك ولاحـظ مـا اعترانـي مـن دهشـة، فأحـب أن يزيـد ذلـك، فقـال: عـن طريـق صنبـور الميـاه! فأيقنـت أن الرجـل فاقـد لعقلـه؛ إذ كيـف يحفـظ الإنسـان القـرآن عـن طريـق صنبـور الميـاه، ولدهـاء الرجـل وذكائـه، قـال

لـي: امتحنــي، فأعجبتنــي الفكـرة، فسـألته عـدة أسـئلة في كتـاب الله، فـإذا بـه يجـري في القـراءة كالسـهم لـم يخطـئ خطـأ واحـدا، فـزادت حيرتـي، وقلـت لـه: سـألتك بـالله، وضـح لـي كيـف حفظـت القـرآن؟ فقـال: كنـا في سلسـلة المنفـردات نعـرف بعضنـا، ومعنا شـاب يحفـظ القـرآن بالقـراءات السـبع، فكانــت الميـاه إذا انقطعـت طرقنـا على بعضنـا طرقـات معينـة ففتحنـا صنابيـر الميـاه، وبـدأ الأخ الحافـظ يقـرأ ونحـن نسـتمع، ولا يـزال يعيـد الصفحـة مـرات كثيـرة حتـى نحفظهـا ثـم نقرأهـا عليـه، وكنـت لما دخلـت المنفـردة أحفـظ عشـرة أجـزاء ثـم حفظـت بهـذه الطريقـة عشـرين جـزءا.

فسـررت بذلـك، وأقبـل الكتَّـاب في المهجـع عليـه بعـد أن علمـوا أنـه قـد أتـم حفـظ القـرآن فأخرجـوا أقـلام القصديـر، طبعـا هـي ليسـت أقلامـا ولكـن غطـاء علـب اللبـن المجفـف تُلـف حتـى تصيـر كهيئـة الأقـلام، ثـم تبـل بالمـاء ويكتـب بهـا على الجـدران، فيكـون خطهـا كقلـم الرصـاص.

وبـدأ الكتبـة يكتبـون على الجـدران وهـو يملـي عليهـم، حتـى كتبـوا الأجـزاء الثمانيـة في أسـبوعين، وبذلـك صـار عندنـا نسـخة كاملـة مـن القـرآن، واحتفـل المهجـع بذلـك احتفـالا عظيمـا، وامتـلأ قلبـي فرحـا وسـرورا، والحـق أنـي كنـت أتمنـى ألا يطلـق سـراحي إلا بعـد أن أتـم حفـظ القـرآن، وقـد حقـق الله لـي ذلـك، ففـي اليـوم الـذي أنهيـت فيـه حفـظ القـرآن بعـد الفجـر أطلـق سـراحي بعـد العصـر ولله الحمـد.

ثـم أقبـل على طـلاب المعهـد وقـال: فأنتـم تـرون كيـف يسـر الله لكـم تحصيـل العلـم ووفقكـم لتلقـي العلـم بيسـر وسـهولة، فاحرصـوا على الجـد والاجتهـاد فأنتـم في نعمـة عظيمـة.

انتهت.

ضرب متة

الزمان والمكان: خان شيخون 2012.

أمضى عثمان نوبته من الثانية عشرة إلى الثانية ظهرا على سطح المقر يراقب بمنظاره حاجز النظام على طرف القرية من الجهة الشمالية، كان يتأمل بدقة وجوه الأشخاص الذين يستوقفهم الحاجز ويقوم بتفتيش سياراتهم أو يقوم بالتحدث معهم، فهو يخشى أن يكون بعضهم عملاء وجواسيس للنظام ينقلون إليه أخبار المجاهدين أو يعطونه إحداثيات مقراتهم ليقوم بقصفها.

وقبيل انتهاء نوبته كان عثمان قد بدأ يشعر بالتعب الشديد؛ فهو صائم ونوبته على سطح سقفه السماء وقد كوته الشمس بسياطها اللاهبة.

وفجأة شاهد عثمان الحاجز وهو يوقف سيارة نوع سوزكي ويخاطب سائقها ويأخذ منه هويته ويأمره بالعودة إلى القرية، واستدار السائق بسيارته وانطلق نحو القرية.
استراب عثمان بشأن هذا السائق، ونادى إخوانه على الحاجز، وطلب منهم إيقاف السيارة، ثم سلَّم النوبة لمن بعده وركب دراجته النارية وانطلق نحو الحاجز حيث كان سائق السوزكي قد وصل بسيارته.

توجه عثمان نحوه وسأله عما جرى بينه وبين الحاجز، شعر الرجل بالخوف وأخبره أن الحاجز أخذ هويته وطلب منه أن يرجع إلى القرية ويحضر له علبة متة ونصف كيلو سكر، ثم أخذ الرجل يقسم الأيمان المغلظة أنه صادق فيما ذكر وأنه ليس جاسوسا ولا عميلا للنظام.

كان عثمان يستمع للرجل وهو يفكر كيف يمكن أن يستغل هذا الموقف ليعاقب الحاجز النصيري، ولم يكن يشك أن الرجل صادق في كلامه، ولكنه قال له: سوف تذهب معنا إلى المقر لنطرح عليك بعض الأسئلة ثم نتركك وشأنك.

أضاءت فكرة في رأس عثمان وبدأ على الفور بتنفيذها، قام واشترى مادة اللانيت وهي سم لا طعم له ولا لون ولا رائحة، ثم عاد وطلب من بعض المجاهدين أن يشتري علبة متة ونصف كيلو سكر، ففعل المجاهد وأحضر المتة والسكر، ومازح عثمان قائلا: بدك تسقي الجيش متة على حسابك؟

فقـال لـه عثمـان: سـتكون متـة تضحـك أرامـل الشـهداء وتسـعد أيتامهـم وتمـلأ قلـوب المصابيـن بالفـرح.

لم يفهم المجاهد ماذا أراد عثمان بقوله إلا أنه أعطاه المتة والسكر.
دخـل عثمـان إحـدى الغـرف وخلـط اللانيـت بالسـكر والمتـة وأعـاد إغـلاق علبـة المتـة، ولـم يخبـر أحـدا بمـا فعـل، ثـم خـرج واتجـه إلـى الغرفـة التـي كان ينتظـر فيهـا سـائق السـوزكي وأعطـاه المتـة والسـكر، قائـلا: نأسـف على الإزعـاج يمكنـك الانطـلاق الآن.

حـاول الرجـل أن يعطـي عثمـان ثمـن السـكر والمتـة إلا أنـه رفـض، فأخـذ الرجـل الأشـياء وسـار بسـيارته؛ حيـث أعطـى الحاجـز السـكر والمتـة وأخـذ هويتـه وأكمـل سـيره.

وفي المسـاء وصلـت الأخبـار أن خمسـة مـن عناصـر الحاجـز لقـوا حتفهـم نتيجـة التسـمم، فيمـا نقـل أربعـة آخـرون إلـى المشـفى.

عندها أخبر عثمان أصدقاءه بما جرى قائلا: «كذا فلتكن أضرب المتة».

عـاد بهـاء إلـى بيتـه والفرحـة تتراقـص على وجهـه فقـد حصـل على مجمـوع عـال في نيلـه لشـهادة البكالوريـا، وسـيتمكن مـن دخـول فـرع الهندسـة الكهربائيـة ويحقـق حلمه الـذي كان يحلـم بـه منـذ كان صغيـرا.

ومضـت الأيـام وصـار بهـاء طالبـا في كليـة الهندسـة الكهربائيـة، كان بهـاء شـابا أسـمر طويـلا واسـع العينيـن عريـض الجبهـة، في أنفـه دقـة شـديدة الأناقـة، مرهـف الإحسـاس، ولـم يكـن بهـاء ملتزمـا دينيـا فهـو نـادرا مـا يصلـي باسـتثناء صـلاة الجمعـة، وقـد تربـى في أسـرة يسـمونها متحـررة يشـيع فيهـا الاختـلاط وسـماع الأغانـي وتدخيـن السـجائر، ومـع ذلـك فقـد كان مهذبـا، وقـد ربـاه أبـوه التاجـر الحلبـي الثـري على صـدق اللهجـة، وكان كثيـرا مـا يقـول لـه: رأس مـال التاجـر صدقـه؛ فإيـاك والكـذب.

كانـت كليـة الهندسـة الكهربائيـة كسـائر الكليـات في حلـب، تـكاد تخلـو من مظاهـر الأدب والحشـمة، ويكثـر فيهـا التبـرج، وتعطـى المحاضـرات فيهـا في قاعـات هـي بالمراقـص أشـبه منهـا بـدور العلـم.

تعـرف بهـاء على عـدة أصدقـاء كانـت مـن بينهـم فتـاة تدعـى سـارة مـن مدينـة صافيتـا، وهـي مـن الطائفـة النصيريـة، ولـم يكـن بهـاء يعـرف مـن هـم النصيريـة، على أي حـال فقـد أعجـب بالفتـاة وشـغفته حبـا، ولـم يكـن حـال سـارة بأحسـن منـه، ومـرت الأيـام وازداد تعلـق بهـاء بسـارة، وكان يشـعر أن اليـوم الـذي لا يراهـا فيـه يمـر بطيئـا كالسـلحفاة تحمـل على ظهرهـا جبـلا.

ولمـا دنـا وقـت تخرجهمـا مـن الجامعـة فاتـح بهـاء أمـه بموضـوع سـارة وطلـب منهـا أن تعـرض الأمـر على أبيـه، ولمـا أخـذت الأم تسـتفسـر مـن ابنهـا عـن تلـك الفتـاة علمـت أنهـا مـن الطائفـة النصيريـة، فقالـت لـه أمـه: يـا بنـي، لا أريـدك أن تتـزوج مـن هـؤلاء القـوم فهـم ليسـوا مـن أهـل ديننـا وملتنـا.

ذهـل بهـاء وهـو يسـمع أمـه تقـول ذلـك، وقـال لهـا: ولكنهـا فتـاة طيبـة يـا أمـي وأنـا أحبهـا.

وأرادت الأم أن تتخلص من شدة الموقف فقالت له: سأعرض الأمر على أبيك ليرى رأيه في ذلك.

كان أبو بهاء تاجرا محنكا ذكيا، ذا مهارة عالية في التجارة، ولا هم له سوى جمع الأموال، ثم إنفاقها ببذخ على أسرته، وعندما عاد في المساء أخبرته بالقصة، وحذرته من مغبة السماح لابنه بالزواج من فتاة نصيرية، ولكن أبا بهاء وجد أمامه كنزا ثمينا، وفرصة لا تعوض، فهذه الفتاة قد تفتح له آفاقا لتسهيل عملياته التجارية طالما أنها من الطائفة التي تحكم البلد وتتحكم فيه، فقال لزوجته: وما المشكلة أن يتزوج بها بهاء، فقالت: ألم تنتبه إلى ما قلت لك، إنها علوية علوية يا أبا بهاء، يعني كافرة.

فقال لها: اخفضي صوتك حتى لا يسمعك أحد فنصبح في خبر كان، وأتبع قائلا: حتى لو كانت كافرة فإنها ستسلم عندما تأتي وتعيش بيننا.

فقالت: ولكن يا أبا بهاء،
فقاطعها قائلا: دعيني من ولكن، طالما أن الولد قد أحبها واختارها فليكن له ذلك.
ووافقت أم بهاء مكرهة.

وفي الوقت ذاته كانت سارة قد فاتحت والدتها بالموضوع ذاته، وأخبرتها أن صديقها بهاء قد أحبها وينوي خطبتها، وأنه ابن تاجر ثري من حلب، ولم تعارض الأم ذلك، وأبلغت أبا سارة بالأمر، ففرح بذلك، فهو يريد أن تذوب الفوارق بين السنة والنصيرية ويتغلغل النصيرية في المجتمع ليخرجوا من عزلتهم السابقة.

وجرت حفلة الخطوبة وكانت حفلة مليئة بالمنكرات بغياب الشعور الإيماني ورقابة الدين، وتم تحديد العرس بعد التخرج مباشرة، أي بعد ثمانية أشهر من الآن.

وشعر بهاء أن الكون بأسره لم يعد يسعه من الفرحة والسرور، ولم يمض سوى شهران على ذلك حتى بدأت المظاهرات تعم في أرجاء حلب منادية بإسقاط النظام، وقد اتخذ بهاء موقفا حياديا في بداية الأمر، ولكن عندما رأى قطعان الوحوش التي يطلق عليها الشبيحة تقمع الناس بكل وحشية، ورأى عددا من أصدقائه في الجامعة اعتقلوا ثم خرج بعضهم وقد صار جسده مشتملا على ألوان الطيف السبعة «قوس

قـزح» وكانـت قاصمـة الظهـر بالنسـبة لـه عندمـا رأى أحـد أصدقائـه وقـد افترسـت فـؤاده ثـلاث طلقـات خرجـت مـن فوهـة بندقيـة أحـد الشـبيحة.

عندهـا أخـذ بهـاء يشـارك في المظاهـرات، ويهتـف بإسـقاط النظـام، وكانـت خطيبتـه سـارة كثيـرا مـا ترجـوه أن يكـف عـن ذلـك، وتـردد على مسـامعه مـا تسـمعه مـن أهلهـا مـن أن هنـاك مؤامـرة كونيـة على نظـام الممانعـة والمقاومـة، فـكان يسـرد عليهـا مـا رآه بـأم عينيـه مـن مشـاهد الوحشـية والإجـرام التـي يمارسـها نظـام الممانعـة والمقاومـة على الشـعب الأعـزل، وذكـر لهـا كيـف قتـل صديقهمـا قبـل أيـام. ولـم تجـد سـارة أمامهـا إلا الصمـت حـلا.

وفي إحـدى المـرات خـرج بهـاء يهتـف في مظاهـرة عارمـة، فأحاطـت بـه مجموعـة مـن الشـبيحة، وانهالـوا عليـه ضربـا، واقتـادوه إلـى إحـدى سـيارات الشـرطة، ومـن هنـاك نقـل إلـى أحـد الأفـرع الأمنيـة، ومـا إن وطئـت قدمـاه ذلـك الفـرع حتـى اسـتقبله زبانيتـه بمختلـف أنـواع اللكمـات والصفعـات والـركلات واللكـزات واللهـزات، فسـقط أرضـا وهـو يـرى أن هـؤلاء وحوشـا كالبشـر أو بشـرا كالوحـوش أو آلات لا قلـوب لهـا أو أي شـيء، المهـم أنهـم بـراء مـن الإنسـانية ولوازمهـا بـراءة الذئـب مـن دم ابـن يعقـوب عليهمـا السـلام.

مكـث بهـاء في السـجن خمسـة عشـر يومـا ذاق خلالهـا صنـوف الألـم وأنـواع التعذيـب، وسـمع مـن الشـتائم البذيئـة مـا لـو جمـع لـكان قـدرا صالحـا ليكـون ذيـلا لمعجـم المناهي اللفظيـة أو شـرحا مطـولا لقـول أهـل العلـم: والكفـر قـد يكـون بالقـول، وأمثلـة غزيـرة لا تحصـى للألفـاظ التـي يقـع بهـا القـذف ممـا يذكـر عـادة في كتـاب الحـدود.

وحـدث أمـر مهـم في السـجن كان سـببا في تغيـر مجـرى حيـاة بهـاء، وذلـك أنـه التقـى برجـل في السـجن يشـع النـور مـن وجهـه ويغمـر الإيمـان قلبـه، ولا يعـرف القنـوط طريقـا إلـى نفسـه، وبعـد أن تعـرف كل واحـد منهمـا على الآخـر أقبـل الرجـل على بهـاء فقـال لـه: صراعنـا مـع هـؤلاء النصيريـة يـا بهـاء أعمـق مـن أن يكـون مـن أجـل إسـقاط هـذا النظـام فقـط، أو نيـل بعـض الحريـات، أو إلغـاء قانـون الطـوارئ، أو مـا شـابه ذلـك. إنهـا معركـة إيمـان وكفـر.

دهش بهاء وهو يسمع ذلك، وقال للرجل: من هم هؤلاء النصيرية؟
فأجـاب: هـم مـن يسـميهم النـاس خطـأ العلويـة، وهـذا اسـم أطلقـه الفرنسـيون عليهـم

بقصد خداع أهل السنة في سوريا.

ثم تابع قائلا: «هؤلاء القوم المسمون بالنصيرية أكفر من اليهود والنصارى، بل أكفر من كثير من المشركين، وضررهم على أمة محمد صلى الله عليه وسلم أعظم من ضرر الكفار المحاربين، ومن أعظم مصائبهم انتصار المسلمين، ومن أعظم أعيادهم قتل المسلمين والاستيلاء على أراضيهم وممتلكاتهم» [اقتباس من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية بتصرف يسير واختصار]، ولا يمكن أن يصمد بوجههم إلا من عمر قلبه بالإيمان وباع نفسه لله، فكن من هذا الصنف أو لا تتعب نفسك فالطريق طويل وشاق ولا زلنا في بدايته.

وختم حديثه بقوله تعالى: (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا).
لامست كلمات هذا الرجل شغاف قلب بهاء وأحس أن مطرا غزيرا قد سقى قلبه القاحل فنبتت فيه المعاني الإيمانية، فعاهد ربه على التوبة وسلوك هذا الطريق الشاق الطويل.

وخرج بهاء من السجن بعد أن دفع أبوه التاجر ثلاثة ملايين ليرة رشوة لإطلاق سراح ابنه.

بدأ تغير بهاء واضحا على أسرته، فهو يحافظ على صلاته في المسجد، ويجتنب السهرات الأسرية المختلطة، وعزف عن سماع الأغاني.

ثم التقى بخطيبته سارة التي قدمت لتهنئه بالخروج بالسلامة. وقبل أن تخيره بينها وبين الكف عن الخروج بالمظاهرات صارحها بأنه لا يمكن أن يتزوج بها ما لم تسلم، وصعقت سارة، وهي تسمع ذلك، ولكنها ظلت صامتة فيما تابع بهاء حديثه عن عزمه على سلوك طريق الثورة ومناهضة هؤلاء الظلمة المجرمين، ثم ذكر لها شيئا مما لقي من العذاب في سجنه، ولم ينس أن يخبرها بوجوب ارتداء الحجاب الشرعي، ثم ختم حديثه قائلا: ما رأيك؟

إلا أن سارة لم تنبس ببنت شفة، بل نزعت خاتم الخطوبة من يدها ثم رمته في وجهه وغادرت المكان دون حتى كلمة الوداع.

شعر بهاء أن قلبه قد انصدع فقد كان مفعما بحب سارة، ولكنه كان قد تعلم أن هذا الطريق يستدعي التضحية بأعظم المحبوبات واللذائذ، ومما أعانه على ذلك مطالعته لسيرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه.

حاولت أسرة بهاء ثنيه عن الطريق الذي بدأ بسلوكه، وكثيرا ما جلس أبوه أمامه يقول له: يا بني، لا نريد مشاكل، نحن نعيش بأمان ورغد من العيش، وهؤلاء المتظاهرون يريدون تخريب البلد، فكف عما أنت فيه ولا تحملني ما لا طاقة لي به. أخبرني ماذا ينقصك؟ أنت تعيش في أهنأ عيشة، تأكل وتشرب ما تحب، وتسكن في أرقى المناطق، وتلبس أجمل الثياب، ماذا تريد غير ذلك؟
وهذه الفتاة التي أحببتها قد تركتك، فراجع نفسك قبل فوات الأوان.

فقال بهاء: هل هذا ما نحيا لأجله يا أبتاه؟ أما ترى الظلم الجاثم على صدورنا؟ ألم أحك لك عما لقيته ويلقاه السجناء من العذاب والإهانة والقتل في الأفرع الأمنية؟
ثم من هم الذين يريدون تخريب البلد من المتظاهرين، كلهم أبناء أسر معروفة وهم شباب في عمر الورد، وكثير منهم من طلبة الجامعة بمختلف أفرعها.
فغضب أبوه لدى سماعه هذا الكلام وقطع عنه المصروف وطرده من المنزل محاولا بذلك ثنيه عن طريقه، ولكن بهاء لم يعبأ بذلك، واتخذ من مصعب بن عمير أسوة له .

وبعد أن تحولت المظاهرات إلى ثورة مسلحة انضم إليها بهاء، ولكنه لم ينس حبه لسارة، وقد اقتنى كتاب السحاب الأحمر وحديث القمر للرافعي، وكان يقرأ فيهما كل ليلة والدموع تنهمر من عينيه.

وفي أحد الأيام طلب أمير الفصيل من المجاهدين الاستعداد لمعركة ضخمة من أجل تحرير بعض المناطق من قبضة النظام النصيري، فتأهب المجاهدون لذلك واستعد بهاء الاستعداد الكامل، وشعر أنه سيلقى ربه في تلك المعركة، فكتب رسالة بخط يده ودفعها إلى أحد أصدقائه الثقات وأمره ألا يفتحها إلا إذا استشهد، فعندئذ يقوم بتصويرها بجواله ثم إرسالها إلى رقم أعطاه إياه.

لم تكن سارة قد نسيت حب بهاء بل كان طيفه يزورها كل ليلة، وكانت لا تنام حتى تبل وسادتها بدموعه، ولكن كبرياءها منعها من إعادة الاتصال ببهاء.

وأخـذت تتابـع الإعـلام بشـدة لعلهـا تظفـر بخبـر عنـه، وقـد أورثهـا ذلـك يقينـا بكـذب النظـام وبطـلان دعاويـه ووهـاء أكاذيبـه، ورأت بعينهـا قصفـه بأنـواع الصواريـخ والقنابـل والبراميـل للآمنيـن والأبريـاء، ورأت أشـلاء الأطفـال المتناثـرة وأجسـادهم الغضـة الطريـة وقـد اختنقـت بعـد أن قصفـت بالكلـور والسـارين، فأحسـت ببغـض شـديد لهـذا النظـام، وودت لـو أن نـارا مـن السـماء نزلـت عليـه فأحرقتـه أو لـو أن الأرض انشـقت فابتلعتـه وخلصـت النـاس مـن جرائمـه وشـروره.

وفي إحـدى الليالـي المقمـرة وبينمـا سـارة تتجـول في حديقـة منزلهـا متذكـرة الأيـام الماضيـة مـع بهـاء إذ سـمعت صـوت تنبيـه مـن جوالهـا ينبؤهـا أن رسـالة قـد وصلـت إليهـا، أمسـكت الجـوال فـرأت رقمـا غريبـا، أرسـل إليهـا: السـلام عليكـم، الآنسـة سـارة؟ هـذه رسـالة كتبهـا بهـاء، وقـد طلـب منـي أن أرسـلها لـك وقـد استشـهد البارحـة بطلقـة قنـاص أصابـت قلبـه.

ثـم رأت صـورة ورقـة مكتـوب فيهـا: سـارة، أعلـم أن هـذه الرسـالة لـن تصـل إليـك إلا بعـد أن تكـون روحـي قـد زفـت إلـى السـماء، ولذلـك لـن أكثـر عليـك الـكلام حتـى لا أنـكأ فيـك جروحـا قـد التأمـت أو شـارفت على الالتئـام ولـن أذكـرك بالأيـام السـالفة، إنمـا أريـد أن أقـول لـك شـيئا واحـدا فحسـب: قـد فاتنـا اللقـاء والوصـال في الدنيـا، فاحرصـي على أن تجمعنـا الجنـة في الآخـرة، فإنـي هنـاك. «بهـاء».

أنهـت سـارة الرسـالة ودمـوع غـزار تنهـار مـن عينيهـا كأنهـا المطـر في كانـون الثانـي، ثـم أرسـلت إلـى ذات الرقـم تطلـب منـه عنوانهـم في حلـب، وقبيـل شـروق الشـمس كانـت سـارة قـد حزمـت أمرهـا وأتمـت اسـتعدادها ويممـت وجههـا شـطر حلـب، معلنـة إسـلامها سـاعية لتحقيـق وصيـة بهـاء في اللقـاء بالآخـرة بعـد أن فـات اللقـاء في الدنيـا.

انتهت.

كنت لا أزال في المكتب الدعوي في حي السكري مقابل مدرسة الثورة مقر حركة أحرار الشام الإسلامية حين سمعت صوت المؤذن ينادي لصلاة الظهر، توضأت ثم نزلت متجها إلى مسجد فاطمة عقيل والذي لا يبعد عن المكتب سوى 100 متر، ولهذا المسجد مكانة عظيمة في قلبي لا يمكن أن يمحوها تعاقب الأزمان مهما طالت، فقد كان الأم الحنون الذي احتضن المجاهدين بعد تحريرهم لحي السكري، وكان مركز نشاطهم، بل قد مر شهران ولا مكان للمجاهدين ينامون فيه سوى هذا المسجد، ولا مطعم يأكلون فيه سوى سُدَّته.

وصلت المسجد فدخلته ووجدت متسعا في الصف الأول فوقفت وصليت السنة، ثم انتظرت حتى أقيمت الصلاة وتقدم إمام المسجد وهو شاب كنى نفسه بأبي مسلم وأصله من عندان، فصلى بنا الظهر.

وبعد قضاء الصلاة جلست أقرأ الأذكار، وشممت رائحة غريبة منكرة؛ وإذ برجل سمين جدا يظهر بشكل واضح أن في عقله شيئا يقترب مني ويجلس بجانبي، ثم يشرع بسؤالي عن معنى الإسراف؟

فقلت له: الإسراف مجاوزة الحد في الإنفاق في المباح، ومن الإسراف أن تشتري كل ما تشتهي.

فقال: وما التبذير؟

فقلت: أن تنفق مالا في غير ما أحله الله، وقد قال تعالى في شأن الإسراف (وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ) وقال في شأن التبذير: (إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ).

فقال: لقد شققت علي بقولك: إن من الإسراف شراء كل ما اشتهيت.

فقلت: هذا كلام العلماء وأنا مجرد ناقل، ورجوت أن ينصرف الرجل فقد آذتني رائحته جدا، إلا أنه أقبل يتبع السؤال بالسؤال، حتى ظننت أن الرجل يريد أن يختبرني، وكان نموذج المختبرين في تلك المدة قد كثر جدا خاصة بعد ظهور الخوارج ونشرهم لبدعهم وكثرة خوضهم في لحوم العلماء وطلبة العلم في الباطل.

فقلت له: أتريد أن تمتحنني بأسئلتك هذه؟
فارتسمت على وجهه علامات الحزن والأسف، وقال: «sory»، فتعجبت من رجل يظهر عليه اختلال العقل ثم يذكر كلمة باللغة الإنجليزية، إلا أن عجبي زاد جدا وبلغ منتهاه عندما قال لي بعد قليل أثناء حديثه: إن نسبة أي عدد إلى «Infinity» يساوي صفر، ثم قال: إنفينيتي تعني اللانهاية، وذكر بعض المصطلحات الأخرى إلا أني لم أحفظها لضعفي في اللغة الإنجليزية.

وبدا واضحا أن هذا الرجل على درجة عالية من الثقافة، وأن حادثا ما قد صيره إلى تلك الحال، وأردت أن أسأله عن قصته إلا أني تهيبت من ذلك وخشيت أن أجرحه، فهذا الرجل ذو إحساس مرهف جدا، وندمت على قسوتي عليه في الكلام قبل قليل.
وتابع الرجل حديثه فقال: أنا دكتور، وكنت أدرِّس في جامعة حلب مادة العقل الجمعي للبورصة.

وهنا غلب فضولي الحياء فسألته: ما الذي صيَّرك إلى ما أرى؟
فتنهد الرجل بعمق، ثم قال: إنها قصة طويلة.
فقلت: وأنا ملقي السمع لتقصها علي.

فقال: كنت أدرس في جامعة حلب، ومع بداية الثورة بدا واضحا أني مؤيد لتلك المظاهرات السلمية التي كانت تطالب بالكرامة والحرية، فقام جواسيس النظام لا كثرهم الله بكتابة تقرير فيّ.

ولم تمض إلا أيام حتى استدعاني عميد الكلية في نفر من الدكاترة، وبعد مقدمة مقيتة عن الوطن وقائد الوطن وتضحياته والمقاومة والممانعة والمؤامرة الكونية التي تتعرض لها البلاد طلب منا التوقيع على بيان دعم للنظام وشتم للمتظاهرين ورميهم بأشنع التهم من الارتزاق والعمالة والإرهاب وتدمير البلد وما إلى ذلك، فرفض بعض الدكاترة التوقيع على ذلك.

فقال: أمامكم خياران؛ إما أن توقعوا على هذا البيان، وإما أن توقعوا على طلب استقالتكم.

فقلت: وإذا رفضت التوقيع على أي منهما؟

فقال: إذا عليك أن تراجع الأمن السياسي فلديهم ما يقولونه لك.

وبمـا أنـي لا أبيـع مبادئـي، ولسـت مسـتعدا للتنـازل عنهـا، وفي الوقـت ذاتـه لا أرغـب برؤيـة وجـوه الوحـوش البشـرية في الأمـن السياسـي فقـد رضيـت أن أوقـع على طلـب اسـتقالتي وخسـرت بذلـك وظيفتـي التـي أنفقـت قرابـة عشـرين عاما مـن عمـري لأحصل عليهـا، ومـع ذلـك لـم ألـق لذلـك بـالا فأنـا على علـم أن الـرزق بيـد الله وسـيأتي إلـيّ رغمـا عـن النظـام، ويكفينـي أنـي انتصـرت في هـذه المعركـة، انتصـرت كرامتـي على الأنانيـة والماديـة.

وعلى أي حـال فقـد كنـت ميسـور الحـال، وكان لـدي ولـد كفلقـة القمـر أسـميته خالـد وهو أحـب إلـي مـن بصـري، وكنـت أرسـله ليتعلـم القـرآن في مسـجد قريـب مـن بيتـي فـكان يبهرنـي بذكائـه وسـرعة حفظـه وجـودة فهمـه وصفـاء ذهنـه، ولأحثـه على المتابعـة والمثابـرة والجـد فقـد أفرغـت لـه غرفـة في الـدار ودعـوت أطفـال عمارتنـا ليدرسـهم، وأسـميت تلـك الغرفـة: مكتـب خالـد.

ثـم دخـل المجاهـدون مدينـة حلـب، وحـررت المنطقـة التـي أسـكن فيهـا، وكانـت سـعادة غامـرة أن ينكسـر قيـد الـذل والاسـتعباد، ولكـن سـعادة النـاس لـم تكتمـل؛ إذ بـدأ النظـام بقصـف المناطـق المحـررة بعشـرات قذائـف المدفعيـة والهـاون يوميـا، وفي ذات يـوم نرسـل خالـد ليشـتري لنـا شـيئا مـن البقالـة، ومـا إن مضـى قليـلا حتـى سـمعت صـوت قذيفـة هـاون تنفجـر وتحـدث دويـا عظيمـا، فقمـت مسـرعا فزعـا فقـد خشـيت أن يكـون خالـد قـد أصيـب بمكـروه.

نزلـت إلـى الشـارع أعـدو كالمجنـون، ولكنـي لـم أر خالـدا، بـل رأيـت أشـلاء ممزقـة كانـت خالـدا قبـل قليـل، ولسـت أقـدر أن أصـف لـك مـا حـل بـي سـاعتها، إنـه ابنـي حبيبـي ثمـرة فـؤادي فلـذة كبـدي نـور عيونـي، لقـد رحـل!

أغمـي علـي ونقلـت إلـى المشـفى، ولـم يحتمـل عقلـي هـول الصدمـة فصـرت أرى خالـدا في كل مـكان، أدخـل غرفتـه فـأراه، أصعـد على درج العمـارة فـأراه، صـرت أذهب إلى السـوق لأشـتري لـه الألعـاب وأعـود إلـى البيـت لأقدمهـا لخالـد، أشـتري لـه الحلويـات والملابـس.

ثـم إنـي هممـت بالانتحـار مـرارا، ولـم يكـن انتحـارا على الحقيقـة، إنمـا كان خالـد يتـراءى

لـي وأنـا في الأماكـن العاليـة وهـو في الأسـفل، فأنظـر إليـه فأجـده يقـول لـي: تعـال يـا أبـي، اقفـز إلـي هيـا، أنـا أحبـك وفي شـوق إليـك. فأهـم بذلـك ثـم أنتبـه إلـى نفسـي فأقـول لـه: يـا خالـد أأأأخشـى أن يدخلنـي الله إلـى النـار، علـي أن أصبـر حتـى نلتقـي في الجنـة.

اغرورقت عيناي بالدموع؛ فقد صدعت قصة الرجل قلبي.

نظـر إلـي الرجـل، وربـت على كتفـي، وقـال: ولا زلـت إلـى اليـوم أتلقـى العـلاج، وهـذا السـمن بسـبب تناولـي بعـض الحبـوب التـي تـؤدي إلـى ذلـك، فهـذه قصتـي وهـذا مـا أوصلنـي إلـى حالتـي هـذه، وإن أحببـت أن تسـأل عنـي فأنـا الدكتـور عمـر المـدرس في جامعـة حلـب.

ثـم نهـض الرجـل وتركنـي أمسـح دموعـي وأكفكفهـا، ثـم قمـت بعـده لأخـرج من المسـجد وأنـا أفكـر في هـذا النظـام المجـرم الـذي دمـر البـلاد والعبـاد ماديـا ومعنويـا؛ فبلـد عامـرة بالخيـرات والعلمـاء والمفكريـن يلقـى علماؤهـا في القبـور أو السـجون أو يطـردون مـن وظائفهـم ويتعرضـون لأنـواع الضغـوط حتـى يفقـدوا عقولهـم، وأمثلهـم حـالا مـن يفـر إلـى بلـد آخـر لينجـو بنفسـه مـن جحيـم النظـام.

وهنـا وجدتنـي لا إراديـا أقـول وقـد خرجـت مـن المسـجد واتجهـت إلـى المكتـب: «يلعـن روحـك يـا حافـظ على هالجحـش الخلفتـه».

انتهت.

ليلة رباط في تل صيبين

كانت ليلة رباط لم يمر مثلها عليَّ في حياتي؛ فقد عانيت فيها أهوالا وفظائع، ومرت عليَّ ساعات رعب كادت أن تقطع نياط قلبي.

ولعلك تظن أن ما عانيته كان من قصف للعدو، أو محاولات تسلل، أو رصدا من قبل قناصته بمناظيرهم الليلية، أو تمكنه من معرفة إحداثية نقطتنا ثم إرسال طائراته لتلقي بحممها علينا.

لا، كل ذلك لم يكن ولا بعضه كان، بل الأمر مختلف عن ذلك تماما، ودعني أخبرك بالقصة من بدايتها.
أُعلمت في صباح يوم الأحد أن نوبة مجموعتنا في الرباط غدا، وهذا ليس بجديد عليَّ، إنما الجديد أن نوبتنا ستكون هذه المرة في قرية صغيرة تدعى «تل صيبين» وتقع قرب مدينة حريتان شمال حلب، ولم نكن رابطنا قبل في هذه القرية ولا رأيناها.

وفي صباح الاثنين كانت مجموعتنا بأكملها في المقر وقد لبس أفرادها الجعب والسلاح، وهم ينتظرون سيارة التبديل لنقلهم إلى النقطة وإعادة المجموعة المرابطة هناك إلى المقر.

كان ذلك في كانون الأول، والبرد شديد جدا، وأضرع السماء لا تتوقف عن الدر على الأرض التي كانت عطشى ولكنها الآن مترعة بالماء التي اختلطت بترابها فأحالتها أوحالا، وهذا ما فسر لنا لاحقا لماذا أعطونا في المقر أحذية طويلة الساقين (جزمة).
مضت لحظات ونحن نتجاذب أطراف الحديث، ثم سمعنا صوت سيارة التبديل وهي سيارة نوع بيكاب يتسع صدرها لاثنين سوى السائق، أما باقي المجموعة فتركب في الصندوق المكشوف الخلفي مع بعض المستلزمات من الأطعمة وقِرب الماء وبعض الذخائر.

كان في مجموعتنا شاب مصري وهو طالب علم يدعى أحمد ويكنى أبا محمد، وهو سبب مصيبتي طبعا، فطلبت منه أن يجلس في المقعد جانب السائق وجلست قربه، وجلس باقي الشباب في الخلف.

انطلقت بنا السيارة تقطع المسافات بسرعة كبيرة، مما أدى إلى أن تنال الإخوة في الخلف صفعات متتالية على وجوههم بأكف الريح الزمهريرية.

وبعد مضي ساعة ونصف تقريبا كانت السيارة تدخل إحدى الحوانيت التي تستعل مرآبا للسيارات في القرية، والقرية على خط التماس مع العدو، ولذلك فليس فيها سوى المرابطين.

وكان علينا السير على أقدامنا قرابة سبعمائة متر لنصل إلى المكان الذي يرتاح فيه المرابطون وينامون، فالطريق إلى هناك لا يمكن أن تمر فيه سيارة؛ لأنه مرصود بالصواريخ الحرارية التي ستحيل أي سيارة تمر إلى كتلة من الحديد المذاب، ولذلك تم رفع سواتر تحمي المشاة أثناء سيرهم إلى النقطة.

وخلال مسيري آلمني ما رأيت من بيوت مهدمة بقصف النظام، وأخرى مهجورة خاوية على عروشها تصفر فيها الرياح، فكم تعب أصحاب هذه البيوت وشقوا حتى بنوها أو اشتروها، ثم هم يضطرون لهجرها والفرار منها لأجل أحمق متشبث بالسلطة شعار شبيحته «الأسد أو نحرق البلد» أحرقه الله وإياهم في الدنيا والآخرة.
وصلنا بعد قرابة عشر دقائق من السير إلى خندق عمقه يزيد على متر وعشرين سم وقد رفع على جانبه الأيمن ساتر ترابي لاتقاء رصاص القناص، نزلنا إلى الخندق فغاصت أقدامنا في الوحل إلى أنصاف الساقين، وكانت معاناة شديدة وأنت تنتزع قدمك في كل خطوة تخطوها وكأنها كرة شوك منغمسة في الصوف.

وبعد مائتي متر تقريبا وصلنا إلى المكان الذي ينام فيه المرابطون، وكانت أمامنا عقبة كؤودا وهي نزع «الجزمات» من أقدامنا؛ لأنها كالمعتاد من النوع الرديء جدا إضافة إلى كونها ضيقة، وبعد محاولات عديدة لنزعها باءت جميعا بالإخفاق اقترح المصري أن ينزع كل واحد منا جزمة أخيه، فكان المرابط يجلس ويأتي آخر ويقبض على الجزمة بكلتا يديه ثم يجذبها بكل ما آتاه الله من قوة، فإما أن تخرج وإما أن يحاول مرارا حتى ينجح في ذلك أخيرا، والمصيبة أن هذا ما سنعاني منه بعد تبديل كل نوبة على «الطلاقيات».

بعد انتهائنا من مصيبة خلع الجزمات قمنا بترتيب المكان ووضع المستلزمات التي أحضرناها في أماكنها، وتحديد أين سينام كل واحد منا، ثم ترتيب جدول للنوبات

على الطلاقيـات، وكان على المرابـط أن يقـف سـاعتين على الطلاقيـة ثـم يرتـاح سـتا في الجُـبِّ، أقصـد المـكان الـذي وضعنـا فيـه أغراضنـا فهـو لـم يكـن في الحقيقـة سـوى جـب لجمـع المـاء في عهـد سـابق، وبيـن الجـب والطلاقيـات خمسـمائة متـر تقطعهـا جميعـا في خنـدق محفـور حتـى تصـل إلـى الطلاقيـة وهـي تقـع في مقبـرة، وبعـض القبـور قـد فتـح مـن جانبيـه نتيجـة حفـر الخنـدق ولا أدري هـل أخرجـوا الأمـوات مـن القبـور عندمـا حفـروا الخنـدق أم وجـدوا الجثـث باليـة لـم يبـق منهـا شـيء ظاهـر.

ولعلـك قـد ضقـت ذرعـا وأنـت تنتظـر أن أخبـرك عـن الأهـوال التـي جـرت معي، فاسـمح لي أن أخبـرك أنـه قبـل نوبتنـا هـذه بأسـبوعين تقريبـا عـم الآفـاق خبـر وفـاة شـخص مصـري يدعـى أحمـد خالـد توفيـق، وكتـب عنـه عـدد مـن الأشـخاص كان مـن بينهـم صاحبنـا المصـري، وكنـت أول مـرة أسـمع باسـم هـذا الرجـل، فسـألته عنـه حينـذاك فأخبرنـي أنـه طبيـب وأديـب مصـري -وليتـه اكتفـى بهـذا- ولـه عـدد كبيـر مـن روايـات الرعـب، وقـد كان لـه أثـر كبيـر مـن خـلال رواياتـه وقصصـه على بعـض الأجيـال قبـل انتشـار الجـوال والإنترنـت..، ولا زال يحدثنـي عنـه وعـن رواياتـه حتـى حملـت مـن النـت إحـدى رواياتـه وقرأتهـا، وكانـت بعنـوان: «حسـناء المقبـرة»، وأظنـك قـد بـدأت بـإدراك المصيبـة.

نعـم هـذا مـا حـدث بالضبـط، بعـد انتهـاء النوبـات النهاريـة جـاء دور النوبـات الليليـة، فخرجـت في نوبتـي مـع أحـد الشـباب ويدعـى أبـا بكـر، وكانـت النوبـة مـن العاشـرة إلـى الثانيـة عشـرة ليـلا.

لمـا وصلـت معـه إلـى الطلاقيـات كانـت المقبـرة موحشـة جـدا، وقـد نثـر الليـل ظلامـه فـلا تبصـر شـيئا، وإضـاءة المصبـاح فيهـا خطـر عظيـم؛ لأن ذلـك سـيعرضك إلـى أن يُكشـف مكانـك ثـم ترجـم بقذائـف المدفعيـة والهـاون، إلا أنـك قـد تضطـر لإضـاءة المصبـاح لأمـر مـا، وهنـا تضطـر أن تدخـل أحـد القبـور المفتوحـة، وهنـاك تضـيء المصبـاح وتصلـح مـا أردت إصلاحـه ثـم تخـرج.

وقفـت مـع أبـي بكـر نتبـادل الحديـث همسـا حتـى تمضـي السـاعات، وقـد ذكرتنـي هـذه الأجـواء «ببراكسـا نجيـب»، وإذا سـألتني: مـن هـي؟ فسـأخبرك أنهـا هـي نفسـها حسـناء المقبـرة، تلـك الروايـة المشـؤومة التـي قرأتهـا بعـد أن ورطنـي في ذلـك صاحبنـا المصري. ومـا زلنـا ننتقـل مـن حديـث إلـى حديـث حتـى حطـت الأفـكار بأبـي بكـر في ذكرياتـه عندمـا كان عنصـرا في جيـش النظـام قبـل أن ينشـق عنـه في عـام 2012 م، وقـد تـرك

هـذا المزعـج الآخـر كل شـيء وأخـذ يحدثنـي عـن أشـياء غريبـة كانـت تقـع أثناء حراسـتهم الليليـة، كأن تشـتعل نـار بنفسـها ثـم تنطفـئ، وكسـماعهم أصواتـا غريبـة لا يـدرون مصدرهـا، ومـا شـابه ذلـك مـن المصائـب السـوداء الصلعـاء.

ثـم حـدث فجـأة مـا لـم يكـن بالحسـبان ولا خطـر لـي على بـال، فقـد أخبرنـي أبـو بكـر أنه يريـد أن يذهـب إلـى الخـلاء، وهـذا يعنـي أنـي سـأبقى وحيـدا بيـن القبـور، وقـد تظهـر «براكسـا نجيـب» في أي لحظـة -آه مـن ذلـك المصـري هـل يأتـي منـه غيـر المصائـب- لئـن عـدت سـالما مـن هـذه النوبـة لأجازينـه على فعلتـه. وبينمـا أنـا أفكـر في ذلـك، قـال لـي أبـو بكـر: خـذ القبضـة أنـا ذاهـب -والخـلاء يبعـد عنـا مائتـي متـر-.

سـرعان مـا ابتلـع الظـلام أبـا بكـر، وأخـذت أحـدق فـلا أرى أمامـي سـوى شـواهد القبـور القريبـة منـي، وكلمـا هبـت الريـح حركـت الأشـياء المبعثـرة في المقبـرة فأصـدرت أصواتـا غريبـة خيـل إلـيَّ أنهـا مقدمـات لخـروج حسـناء المقبـرة.

حاولـت صـرف ذهنـي عـن تلـك الروايـة المنحوسـة، وأخـذت أفكـر بكتـاب آخـر قرأتـه بعيدا عـن الروايـات، ولكـن للأسـف غابـت عنـي مئـات الكتـب التـي قرأتهـا ووقـف شـامخا في ذهنـي كتـاب «آكام المرجـان في أحـكام الجـان» للشـبلي، فاسـتعذت بـالله مـن شـرهم وقـرأت آيـة الكرسـي والمعوذتيـن، وعـدت أفكـر في آخـر كتـاب قرأتـه قبـل قدومـي إلـى الربـاط، فـكان كتـاب «عجائـب المخلوقـات» للقزوينـي، ومـع أنـه كتـاب كبيـر تصـل عـدد صفحاتـه إلـى خمسـمائة صفحـة وقـد تحـدث فيـه عـن مختلـف المخلوقـات في الكـون مـن الجمـادات والنباتـات والحيوانـات، إلا أن ذلـك تبخـر مـن ذاكرتـي ولـم يبـق فيهـا إلا مـا ذكـره عـن الغـول والسـعلاة والنسـناس المزعـوم والـذي هـو شـق إنسـان وتصطـاده العـرب وتأكلـه، وهـو يتكلـم ويقـول شـعرا، وبمـا أنـه شـق إنسـان فإنـه يقفـز فقـزا على قـدم واحـدة.

فثنيـت عنـان فكـري إلـى آخـر كتـاب حمَّلتـه مـن النـت وقرأتـه على الجـوال، ولكنـه لـم يكـن سـوى كتـاب «الغـول بيـن الحديـث النبـوي والمـوروث الشـعبي».

لا حـول ولا قـوة إلا بـالله، مـا هـذه الكارثـة التـي تلاحقنـي، ثـم لمـاذا تأخـر أبـو بكـر ولـم يـأت إلـى الآن؟ وبالطبـع لـم أكـن قـادرا على النظـر إلـى السـاعة؛ لأن ذلـك يتطلـب الدخول في أحـد القبـور وإضـاءة المصبـاح.

وأخيـرا خطـر في بالـي أن ألـزم ذاكرتـي باسـتحضار بعـض أشـعار الجاهليين التـي أحفظها، فـإذا بهـا جميعـا تفـر مـن قبضـة الذاكـرة، ولا يتبقـى منهـا سـوى أبيـات لتأبـط شـرا يصف فيهـا سـعلاة بعـد أن قتلهـا، وهـي قوله:

إذا عينان في وجه قبيح   كوجه الهر مشقوق اللسان
ورجلا مخدج ولسان كلب   وجلد من فـــراء أو سنـــان

وتصور أمامي هذا المنظر البغيض الكريه المخيف الذي صوره «تأبط» في أبياته.
وهنـا سـمعت وقـع أقـدام تسـير خـارج الخنـدق، وهـذا يعنـي أنـه ليـس أبـا بكـر، فمـن تـراه يكـون؟ أهـو حسـناء المقبـرة؟ أم السـعلاة؟ أم الغـول؟ أخـذت أقـرأ مـا أحفـظ مـن أذكار الوقايـة وخاصـة ذكـر «أعـوذ بكلمـات الله التامـات مـن شـر مـا خلـق»، ثـم اسـتجمعت قـواي وصحـت: مـن القـادم؟ فقـال: أبـو بكـر، فتجاذبنـي شـعور بالغضـب الشـديد والرضـى الشـديد في آن واحـد، الرضـى لأنـه لـم يكـن سـعلاة ولا غـولا ولا براكسـا نجيـب، والغضـب لمـا سـببه لـي مـن الخـوف والهلـع، فقلـت لـه: لمـاذا تسـير خـارج الخنـدق، فأجـاب: الظلام دامـس والبـرد قـارس والخنـدق ملـيء بالأوحـال، ولا خـوف مـن قناصـة النظـام في هـذا الجـو، فـلا بـد أنهـم حـول المدفئـة الآن، وهـم غيـر مسـتعدين لتحمـل هـذه المصاعـب مـن البـرد والتعـب والنصـب لقتـل شـخص مثلـي!
ثـم نـزل وقـال: أوشـكت نوبتنـا أن تنتهـي، فأمسـكت بالقبضـة لأطلـب إرسـال النوبـة التـي بعدنـا، ولكـن يـا لسـوء الحـظ لقـد فرغـت البطاريـة، والطريقـة الوحيـدة الآن هـي الذهـاب إلـى الجـب.

فقال أبو بكر: أتذهب أم أذهب؟
وتمنيـت أن يكـون معـي أبـو فـراس الحمدانـي ليعطينـي حـلا ثالثـا كمـا أعطـى أصحابـه حيـن قالـوا لـه: الفـرار أو الـردى! ولكـن هيهـات لا بـد أن أختـار أحـد أمريـن أحلاهمـا مـر، وعلى أي حـال البقـاء هنـا خيـر مـن السـير وحيـدا خمسـمائة متـر في الخنـدق المظلـم.
فذهـب أبـو بكـر وبقيـت وحيـدا مجـددا، على أن انتظـاري لـم يطـل هـذه المـرة، فمـا هـي إلا عشـر دقـات -حسـبتها عشـر سـاعات طبعـا- حتـى جـاءت النوبـة التـي بعدنـا، وتذكرت أنـي سـأعود وحيـدا إلـى الجـب، فصـرت بذلـك جامعـا للأمريـن اللذيـن أحلاهمـا مـر، ولكـن هـذه المـرة أخـذت دور أبـي فـراس فأوجـدت حـلا ثالثـا، وهـو أن أبقـى مرابطـا مـع هـذه النوبـة الجديـدة بذريعـة أنـي لا أشـعر بالنعـاس والتعـب، مـع أنـي كنـت منهـك القـوى، وهكـذا وجدتنـي واقفـا مـع الأخويـن في نوبتهمـا أنـدب حظـي العاثـر وأتميـز غيظـا مـن صاحبنـا المصـري.

وقفـت قليـلا ثـم وجدتنـي غيـر قـادر بحـال على المتابعـة، ووجـدت أن الحـل الثالـث الـذي اخترعتـه كان سـقيما عقيمـا، فقـررت أن أرجـع إلـى الجـب وحـدي وليكـن مـا يكـون، فليسـت السـعلاة والغـول وبراكسـا سـوى خرافـات لا وجـود لهـا، هـذا مـا كنـت أحـدث بـه نفسـي لأشـجعها على المضـي قدمـا، وأخيـرا أكرهتهـا وأخبـرت الأخويـن أنـي ذاهـب إلـى الجـب، وأخـذت أحـث الخطـى مسـرعا غيـر مبـال بكثـرة الأوحـال.

ولـم أقطـع سـوى مسـافة يسـيرة حتـى سـمعت صوتـا يشـبهه مـواء القطـط وليـس بـه، فقفـز إلـى ذهنـي مسـارعا حديـث دار مـرة لمـا كنـت في زيتـان -قريـة في ريـف حلـب الجنوبـي- عـن حيـوان يدعونـه القرطـة يأتـي الرجـل مـن خلفـه ثـم يقفـز على عنقـه فيقتلـه، ثـم تبـع ذلـك تذكـري لمـا قرأتـه في كتـاب «تاريـخ الخلفاء» للسـيوطي عـن خوف أهـل بغـداد مـن حيـوان يدعـى الزبـزب يقتـل الأطفـال ويقطـع أثـداء النسـاء، والقرطـة والزبـزب حيـوان واحـد واسـمه غريـر العسـل، أسـرعت في سـيري أكثـر وسـقطت مرتيـن في الوحـل قبـل أن أصـل إلـى واحـة الأمـان في الجـب، ومـا إن دخلتـه حتـى غمرتنـي فرحـة عظيمـة وكأنـي قـد ملكـت الدنيـا.

نزعـت جعبتـي ووضعـت سـلاحي قريبـا مـن فراشـي، ثـم تمـددت عليـه وبسـطت يـدي فقبضـت على كتـاب في حقيبتـي كنـت قـد أحضرتـه معـي لأمـلأ فراغـي في أوقـات الاسـتراحة، وللقـراءة قبـل النـوم لـذة عنـدي لا تعدلهـا أي لـذة أخـرى.

كان عنـوان الكتـاب «معـادن الذهـب في الأعيـان الذيـن تشـرفت بهـم حلـب» لأبـي الوفـا العرضـي، وهـو كتـاب تراجـم كمـا هـو واضـح مـن عنوانـه، وأحـب القـراءة إلـيَّ القـراءة في كتـب التاريـخ والتراجـم، تناولـت الكتـاب وأنـا أقـول في نفسـي: سـأقرأ الآن سـيرا بعيـدا عـن السـعالي والجـن والعفاريـت وحسـناء المقبـرة، بـدأت القـراءة فوجدتـه يترجـم للعلمـاء والأوليـاء وعـددا مـن المجاذيـب عدَّهـم في الأوليـاء مـع غرابـة أفعالهـم ومنافاتها للإسـلام.

ولكـن المصيبـة أنـي لـم أقطـع شـوطا طويـلا في القـراءة حتـى وجدتـه يترجـم لخبـاز ذهـب مـرة باكـرا إلـى مخبـزه قبـل الفجـر، فخـرج لـه نفـر مـن الجـن وأخبـروه أن جنيـة تحبـه وتريـد الـزواج منـه، وبالفعـل فقـد تزوجهـا الرجـل وذاق منهـا الأمرَّيـن، فاسـترجعت عنـد قراءتـي لهـذه الترجمـة!! مـا الخطـب؟ لمـاذا الجـن والعفاريـت في كل مـكان؟
وهنـا أغلقـت الكتـاب ونمـت وأنـا أخشـى أن أرى شـيئا مخيفـا في منامـي، ولكـن ولله

الحمد مضت الليلة على خير، وكذلك الليلة التي تليها، وعدنا إلى المقر، وبقيت عندي مجازاة صاحبنا المصري على المصيبة التي أوقعني بها، وكنت أعلم أن معظم المصريين يكرهون أكل «المجدرة»، بل إن بعضهم يسميها «المجنزرة».

فقلت لأبي محمد المصري: أنت مدعو على الغداء عندي، فقال: وما الغداء؟ فقلت: لن أخبرك، ولكنه طعام ما ذقته قبل قط، فقال: مستحيل لقد أكلت جميع الأكلات الحلبية، فقلت له: أقسم أنك ما أكلته قبل قط.

وجاء أبو محمد على الغداء، وارتسمت علامات التعجب على وجهه وهو يرى طبق المجدرة الذي بين يديه، ثم قال: هذا هو الطعام الذي لم أذقه قط؟! فقلت: نعم، فقال: لقد أكلته مرارا وأنا لا أحبه أصلا، فقلت له: لقد أكلت مثله، أما هذا فلم تأكله قط وإلا لما كان موجودا أمامك الآن.

وأكل أبو محمد مكرها، وكنت أستشف من ملامحه أنه ود لو يرميني بطبق المجدرة ويهشمه على رأسي، ولكنه كظم غيظه احتراما لحرمة البيت، ولم أخبره طبعا بسبب هذه العقوبة القاسية.

انتهت.

كان عمر وضاح خمس سنين عندما هبَّ الشعب السوري عام 2011م مطالبا بحقوقه رافضا للظلم والاستعباد الذي عاناه من نظام الأسد الطائفي المجرم، ولذلك فهو يذكر كثيرا تفاصيل الثورة التي تربى في أحضانها ورضع العزة والكرامة من ثُديِّها.
إنه الآن يبلغ من العمر خمسة عشر عاما، لقد عاش في ظل الثورة عشر سنين كاملة بحلوها ومرها وعسرها ويسرها وشدتها ورخائها ومحنها ومنحها وانتصاراتها وانكساراتها وفتوحاتها وتراجعاتها.

وقف وضاح في فسحة سماوية وسط معهده الذي يتعلم فيه ويقع في ريف مدينة إدلب، كان الوقت ليلا والهواء النقي يداعب شعره، والنسيم العليل يطبع قُبلا على وجنتيه، طافت الذكريات بوضاح فركب في قطارها يمر على محطات حياته محطة محطة .

تذكر أباه وهو يقول له عندما كان عمره ست سنين وقد أرسله إلى معهد ليتعلم القراءة والكتابة ويحفظ ما تيسر من القرآن مع أحكام الطهارة والصلاة، يقول له: يا بني تعلم العلم وإياك والتهاون في ذلك، فلم يصيرني إلى ما تراه من الفقر والعوز وبؤس الحال إلا الجهل.

ثم حاول والده أن يحبس دمعة رفضت إلا أن تنهمر رغما عنه، وقال وقد أخذ بيد ابنه حتى أتى نافذة في جدار الغرفة: أترى هذه الأراضي الزراعية الشاسعة التي تراها مد البصر؟
فقال وضاح: نعم.

فقال: لقد كانت جميعها ملكي قبل أن يغصبنيها عمك الأكبر.
فقال وضاح: وكيف ذلك يا أبي.

فقال: هذا ما أريد أن أحدثك به، لقد كان جدك رحمه الله لا يهتم بشيء سوى الأرض يحرثها ويزرعها ويأكل من خيرات الله التي تخرجها الأرض ويطعم المساكين، وقد علَّمنا العمل في الأرض منذ كنا أطفالا في عمرك، فلم يدفعنا إلى كُتَّاب ولم يُدخلنا مدرسة، إنما اكتفى بتعليمنا الفاتحة وسورا قصيرة وبعض أحكام الطهارة

والصلاة، حتى زكاة الزروع التي كان يخرجها كل عام لم نكن ولم يكن هو يعرف عنها شيئا، غير أنه كان عند الحصاد يدعو إمام المسجد، ويقول: هذا ما أخرَجَته أرضي فخذ منه حق الله وضعه حيث يجب، فكان الإمام يفعل ذلك.

ثم إن جدك مات إلى رحمة الله، وورثنا نحن أبناءه الثلاثة الأرض؛ فأما أخي الأصغر فلم يكن يحب الريف ولا العمل في الأرض، ويؤثر على ذلك الحياة في المدينة والعمل هناك، فسرعان ما باع نصيبه من أخيه الأكبر وقبض الثمن ومضى إلى المدينة، وأراد أخي الأكبر شراء نصيبي أيضا فرفضت، فهذه الأرض كأحد أولادي وقد شربَتْ من ماء جبيني كما شربَتْ من ماء المزن.

حاول عمك كثيرا وأعطاني سعرا أكثر مما أعطى أخي الأصغر إلا أني أصررت على الرفض، ولما يئس مني قال: إما أن تبيع وإما أن آخذها بغير ثمن جبرا عنك.
فقلت: لن تصل إلى قليل ولا كثير منها طالما أن روحي في جسدي، وظننت أنه سيأخذها بالقوة، ولم أعلم أنه سيأخذها بالغدر والخديعة.

ومضت الأيام وأرسل عمك رجلا ليصالحني وإياه، ولم أكن أعلم أن عمك أرسله، إنما ظننته فاعل خير، وتم الصلح وعادت المياه إلى مجاريها كما يقال، ولم يدر بخلدي أن عمك يمكر ليسلبني أرضي.

وذات يوم أرسل عمك أحد أبنائه يدعوني إلى بيته، فذهبت، فلما دخلت وجدت عمك جالسا وحوله بضعة رجال، وقد ارتدى أحدهم بزة فاخرة، ولا أخفيك يا ولدي أني لم أرتح لهم، ورأيت غضب الله في وجوههم السوداء، فلما جلست قال لي عمك: لقد اشتريت أرضا من هذا الرجل -وأشار إلى أحدهم- في القرية المجاورة، وأريدك أن تشهد على العقد، وهذا -وأشار إلى صاحب البزة- الأستاذ المحامي جاء ليوثق العقد.

فقلت: حبا وكرامة.
ثم التفت عمك إلى الرجل الأول، وقال له: هل قبضت كامل ثمن أرضك؟
فقال الرجل وهو يحاول أن يخفي ضحكة استهزاء: نعم، ولم أعلم بمن يستهزئ وقتها، ثم علمت بعد أنه كان يستهزئ بي.
ثم قال للمحامي: تفضل أستاذ.

فأخـرج أوراقـا مـن حقيبتـه وطلـب بطاقاتنـا الشـخصية، وأخـذ ينقـل منهـا بيانـات إلـى أوراقـه، وبمـا أنـي أُمـيٌّ لا أعـرف قـراءة ولا كتابـة فلـم أدر مـا يفعـل.

ثم التفت إليَّ المحامي، وقال: وقع هنا.

فقلت: أما التوقيع فلا أعرفه، ولكن أبصم.

فقال: ضع بصمتك هنا.

فبصمت.

ثم التفت إلى عمك، فقال: أتبصم أم توقع؟

فقال: بل أبصم.

ثـم وقـع رجـلان مـن الحضـور، وشـربنا الشـاي، وانقضـى المجلـس، ثـم انصرفـت وأنـا فـرح بـأن أخـي اشـترى أرضـا في القريـة المجـاورة.

وبعـد أسـبوع فوجئـت برجـل يأتينـي في أرضـي ويخبرنـي أن أخـي رفـع علـيَّ دعـوى يطالـب فيهـا بـأن أفـرغ لـه أرضـي؛ لأنـي بعتـه إياهـا.

فقلـت: كيـف ذلـك؟ أنـا لـم أبـع أرضـي لأحـد، وأردت أن أقـص على الرجـل قصـة الأرض كاملـة منـذ وفـاة جـدك.

إلا أن الرجـل قاطعنـي، وقـال: عـذرا يـا عـم، ليـس لـي علاقـة بهـذا، إنمـا وظيفتـي أن أبلغـك بموعـد الجلسـة في المحكمـة، ثـم أعطانـي ورقـة وانصـرف.

وأدركـت أن عمـك قـد خدعنـي واسـتغل جهلـي بالقـراءة والكتابـة فبصمـت على بيـع أرضـي وأنـا أظـن أنـي شـاهد، وأن الحاضريـن كانـوا شـهود زور اتفـق عمـك معهـم ومـع المحامـي.

ولمـا حـان موعـد الجلسـة القضائيـة ذهبـت وقصصـت قصتـي على القاضـي، فلـم يقبـل منـي، وجـاء شـهود الـزور فوضعـوا أيديهـم على كتـاب الله وحلفـوا كذبـا وزورا، وقُضـي لعمـك علـي، وخسـرت أرضـي بأسـرها، وعـدت مَسُـودا بعـد أن كنـت سـيدا، وأجيـرا بعـد أن كنـت رئيسـا، وآخـذا للـزكاة بعـد أن كنـت معطيهـا، ومسـكينا بعـد أن كنـت متصدقـا على المسـاكين، وموضـع إشـفاق النـاس ورحمتهـم بعـد أن كنـت محـل رجائهـم.

مكثــت أيامــا لا أقابــل أحــدا ولا ألتقــي بــه، ولا أقــوى على عمــل، إلا أن بــكاءك وأنــت رضيــع وتضاغــي إخوتــك ودمــوع أمــك التــي لا تنقطــع أجبرتنــي على الخــروج لأبحــث عــن عمــل، إلا أنــي آثــرت قبــل ذلــك الذهــاب إلــى عمــك وتذكيــره أواصــر القربــى بيننــا، ومــا آل إليــه حالنــا، عــلّ الرحمــة تهتــدي إلــى قلبــه فيــرق لنــا ويــرد حقنــا، فلمــا وصلــت وطرقــت البــاب خــرج أحــد أبنــاء عمــك، وقــال: مــاذا تريــد؟ ولــم يقل لــي: تفضــل بالدخــول، مــع أننــا نقولها لذلــك الغريــب الــذي لــم نــره قــط عندمــا يطــرق البــاب.

فقلت له: أين والدك؟

فقال: في الداخل.

فقلت: ادعه لي.

وقبل أن يدخل كان عمك قد سمع صوتي فخرج ووقف أمام الباب، وقال: ماذا تريد؟

فقلت له: أطفالي يبكون جوعا.

فابتســم ابتســامة ماكــرة، وقــال: حقــك علــي، طرقــت بــاب كريــم، ثــم أخــرج مبلغــا مــن المــال، وقــال: خــذ واشــتر لأولادك مــا يشــبعهم، وإذا لــم يكفــك هــذا المبلــغ فعــد إلــي أزيــدك.

فابتلعــت هــذه الإهانــة على مضــض، وقلــت: أعــد أموالــك إلــى جيبــك، فلســت بحاجــة لهــا، إنمــا أريــد أرضــي.

فقال: أي أرض؟

قلت: أرضي التي اغتصبتها مني.

فقــال: لــم أغتصــب منــك شــيئا، إنمــا بعتنــي إياهــا وبصمــت على العقــد وشــهد على ذلــك الشــهود، ثــم لــم تــرض بذلــك كلــه حتــى حكــم القضــاء لــي بهــا.

فقلــت لــه: هــذا الــكلام تضحــك بــه على غيــري، أمــا أنــا فأنــت تعلــم أنــي أعلــم أنــك مكــرت بــي وســلبتني أرضــي.

فقال: إن شئت دفعت لك مائة ألف وتكف عن قولك للناس: إني سلبت أرضك.

فقلت له: يا ظالم أرض ثمنها خمسة ملايين تريد أن تعطيني ثمنها مائة ألف.

فقــال: إذن اعمــل في الأرض وأعطيــك ثلاثــة أضعــاف أجــر العامــل، وقــوت ســنتك مــن الأرض، فــأن تعمــل عنــد أخيــك خيــر مــن أن تعمــل عنــد الغريــب.

فقلت له: لأن أسف المل وأمص الحصى خير لي من أن أعمل عندك.
وأنـا أعلـم يـا ولـدي أنـه كان يريدنـي أن أعمـل عنـده ليقـول النـاس: إنـي بعتـه الأرض فعـلا ولـم يأخذهـا غصبـا.

ثـم وليـت ظهـري لعمـك وانطلقـت باحثـا عـن عمـل، والحيـاء يـأكل وجهـي، فعنـد مـن أعمـل؟ ولمـن أكـون أجيـرا؟ إلا أنـه لا بـد ممـا ليـس منـه بـد، فذهبـت إلـى أحـد أصدقـاء جـدك في القريـة، وكان قـد سـمع بقصتـي، وطلبـت منـه أن يسـتعملني في أرضـه، ففعـل، وعملـت عنـده سـنتين، وكانـت الأجـرة بالـكاد تكفينـي.

ثـم علمـت أن عمـك أصيـب بمـرض السـرطان وأن المـرض استشـرى بجسـده بصـورة كبيـرة، وهـو يمضـي ليلـه يصـرخ ألمـا، والحـق أقـول لـك يـا بنـي: إن الـدم لا يتحـول مـاء، لقـد تألمـت لمـا نـزل بعمـك، وهممـت بعيادتـه مـرارا، إلا أن نفسـي لـم تطاوعنـي.

ولم تمض سوى أيام إلا وابن عمك يأتيني، فيقول: إن أبي يريد رؤيتك.
فقمـت فانطلقـت مسـرعا حتـى أدخـل عليـه، فلمـا دخلـت سـلمت، ثـم أشـار إلـي بالجلـوس، فجلسـت، وقـال لابنـه: اخـرج وأغلـق البـاب خلفـك، ففعـل، فنظـر عمـك إلـيَّ، وقـال: هـذا وقـت لا ينفـع فيـه الكـذب، أنـا أعلـم أن مـا حـل بـي هـو بسـبب أرضـك، وقـد أرانـي الله عـدة آيـات فلـم أتعـظ ولـم أعتبـر.

ثـم سـكت قليـلا، ثـم قـال: أتذكـر المحامـي الـذي وثـق عقـد البيـع المـزور؟ لقـد نـام وتـرك المدفـأة مشـتعلة فسـرت النـار في بيتـه فأحرقـت البيـت، وكاد أولاده أن يموتـوا خنقـا لـولا لطـف الله، أمـا هـو فقـد أصيـب بحـروق مـن الدرجـة الثالثـة، فلمـا بلغنـي الخبـر أخـذ ضميـري يؤنبنـي فأُسـكته، وقلـت: صدفـة.

وبعـد شـهر علمـت أن أحـد شـهود الـزور كان يعمـل في معمـل لصناعـة الكراسـي البلاسـتيكية، فلمـا حـاذى إحـدى الآلات انزلقـت قدمـه، فاتقـى السـقوط بوضـع يـده اليمنـى على الآلـة فقطعـت يـده التـي وضعهـا على كتـاب الله وحلـف كذبـا، وعـاد ضميـري يؤنبنـي، فقلـت: عامـل أحمـق لا يجيـد التعامـل مـع الآلات.

ثـم بلغنـي أن الشـاهد الثانـي بينمـا يصلـح الكهربـاء في بيتـه وهـي مقطوعـة إذ عـاد التيـار فجـأة وأمسـكه ولـم يفلتـه إلا وقـد شـلت يـده اليمنـى، فلمـا بلغنـي، قلـت: عجبـا

لهـذا الجاهـل أمـا كان يعلـم أنــه لا بـد مـن إنــزال القاطـع الكهربائــي قبـل التعامـل مـع الكهربــاء.

فلــم تنفعنــي تلــك الآيــات جميعــا حتــى نــزل بــي مــا تــرى مــن المــرض، ثــم صــرخ مــن الألــم صرخــة منكــرة دفعــت أحــد أولاده أن يركــض ويفتــح البــاب، ظانــا أنــي أنتقــم مــن أبيــه، وتتابــع الصــراخ منــه، وكان صراخــا يفتــت الأكبــاد، ثــم هــدأ قليــلا، وقــال: هأنــذا أموت وأرجــو منــك أن تســامحني!
فقلت له: رد إليَّ أرضي حتى أسامحك.

فقال: يا ليت، ولكن فات الأوان!
فقلت: ماذا تقصد؟
فقال: لقد وزعتها على أبنائي الذكور وسجلتها بأسمائهم.
فقلت: اجمعهم فأخبرهم بالحقيقة.
فقال: لن يرضوا بذلك.

ثــم نــادى أبنــاءه الذكــور، فاجتمعــوا جميعــا، وكانــوا أربعــة، وقــال لهــم: يــا أبنائــي إنــي ميــت عمــا قريــب، وقــد قدمــت في حياتــي كل مــا أقــدر عليــه، وإن الأرض التــي تعرفــون هــي لعمكــم، وقــد أخذتهــا منــه غصبــا، فــإن كانــت لــي عندكــم كرامــة فــردوا الأرض إلــى عمكــم وأنقذونــي مــن عــذاب الله غــدا.

فأطرقوا رؤوسهم جميعا ولم يردوا عليه بكلمة، فقال: أجيبوني ما لكم؟
فسـكتوا، ثــم قــال أحدهــم: لا بــد أن شــدة الألــم جعلــت أبانــا يهلــوس ولا يــدري مــا يقــول، ثــم التفــت إلــي بوجــه عبــوس كالــح، وقــال: انصــرف أيهــا الرجــل فليــس لــك عندنــا شــيء.
فقلت: أنتم دعوتموني ولم آتكم، ثم نظرت إلى عمك.

فقال: ألم أقل لك: إنهم لن يرضوا؟
ثم ما لبث بعدها إلا قليلا ومات.
وهــا أنــت يــا بنــي ترانــي كيــف أتعــب وأشــقى لأوفــر لأســرتي مســتلزماتها، ولــو كنــت أعــرف القــراءة والكتابــة لمــا وقعــت في تلــك الداهيــة.
شــعر وضــاح بالألــم يعتصــر فــؤاده لحــال أبيــه، ثــم ســار بــه قطــار ذكرياتــه إلــى محطــة أخــرى مــن محطــات حياتــه.

تذكر وضاح نفسه وعمره ثماني سنين وهو يذهب إلى المدرسة في الصباح وإلى معهد القرآن بعد الظهر، ثم يعود عصرا إلى البيت ليأخذ طعام الغداء وينطلق به إلى أبيه في الحقل، ثم يعود أدراجه إلى البيت. وفي ذات يوم عاد من معهد القرآن وكالعادة أعدت أمه طعاما ليأخذه إلى أبيه الذي لا يزال يعمل في الحقل منذ الصباح وقد لفحه هجير الحر وكوته الشمس بسياطها، يأخذ وضاح الطعام بعد أن طبعت أمه قبلة على وجنته، ولم يخطر في باله قط أن هذه هي المرة الأخيرة التي يرى فيها أمه على قيد الحياة، أو أن هذه القبلة ستكون الأخيرة.

مضى وضاح ككل الأطفال يركض تارة، ويمشي أخرى، ويتوقف ثالثة ليتأمل طائرا يبحث عن طعام لفراخه أو ليرقب دودة صغيرة تزحف ببطء بين التربة أو ليمتع ناظريه برؤية بعض النباتات بديعة الشكل، ثم يدرك أنه تأخر على أبيه فيعاود الركض، وأخيرا وصل إلى حيث يعمل أبوه فيقبل يده ثم يناوله الطعام، ويقف وضاح قليلا ليسأله والده عن حال أمه وإخوته في البيت، ثم يسأله عن دراسته ويستخبره عما حفظ اليوم من القرآن أو نقشه في ذاكرته من أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم.

وبينما الوالد وابنه يتجاذبان أطراف الحديث؛ إذ نادى المراقب في المرصد عبر القبضة: يرجى الانتباه وأخذ الحيطة والحذر، حربي روسي في الأجواء.

ولم تكن تلك الكلمات إلا شيئا متكررا اعتاده الناس وألفوه، ومع عجز الفصائل عن إيجاد حل يتصدى لهذا الطيران المجرم الذي يوقع يوميا العشرات من الشهداء اتخذ الناس من الإيمان بالقدر والدعاء مسلاة لهم، فما إن يسمعوا بخبر تحليق الطيران حتى يبادروا ويقولوا: «اللهم بردا وسلاما، اللهم اجعل كيدهم في نحرهم»، ثم يتابعوا حياتهم قائلين: «إللي إلو عمر ما بتقتلوا شدة»، و (لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)، وربما زاد بعضهم فتفلسف قائلا: «لا داعي أن نخاف من القصف؛ لأن سرعة الصاروخ والقذيفة أكبر من سرعة الصوت لذلك ما سيقتلك لن تسمع صوته».

وفجأة انقضت الطائرة ونفثت حممها محدثة دويا عظيما وانفجارا كبيرا، نظر أبو وضاح إلى الدخان المتصاعد، وخمن أن القصف وقع قريبا من منزله، فأصابه الهلع وطلب من وضاح أن يبقى هنا ريثما يذهب فيطمئن على أهل بيته ثم يعود، وانطلق يُغِذ السير مسرعا، وربما حمله الخوف على أهله فأطلق العنان لساقيه

يسـابق بهمـا الريـح، حتـى وصـل فـرأى أن القصـف وقـع قريبـا مـن داره ولكنهـا لـم تصـب بـأذى، فدخـل البيـت مهنئـا أهلـه على السـلامة معانقـا صغـاره فرحـا بنجاتهـم، ثـم هـمَّ بالخـروج والعـودة إلـى الحقـل، ومـا إن خرجـت إحـدى رجليـه مـن البـاب حتـى انقـض صـاروخ جديـد محطمـا الـدار ممزقـا مـن فيهـا مـن البشـر، مفتتـا مـا بنيـت بـه مـن الحجـر، جاعلهـا أثـرا بعـد عيـن، وركامـا مـن الحجـارة.

ظـل وضـاح ينتظـر قـدوم أبيـه غيـر عالـم بمـا جـرى حتـى أوشـكت الشـمس على المغيب، وخشـي أن يحـل الظـلام ولا يقـدر حينئـذ على العـودة وحـده خوفـا مـن الـكلاب أو بنـات آوى التـي تنتشـر مسـاء بحثـا عـن طعامهـا، فآثـر أن يرجـع إلـى الـدار، وانطلق يغـذ الخطى نحـو بيتـه، ولمـا وصـل رأى النـاس متجمعيـن حـول تلـة مـن الأحجـار والأتربـة كانـت منـزلا في السـابق.

أخـذ وضـاح يتصفـح وجـوه النـاس كالمجنـون ويعـدو هنـا وهنـاك بحثـا عـن أبيـه أو أمه أو أحـد إخوتـه ولكـن دون جـدوى، ولـم يرغـب أحـد أن يصـدع قلبـه الصغيـر ويخبـره بالحقيقة التـي لـم يكـن أحـد قـادرا على إخفائها.

وأخيـرا جـاءت خالـة لـه فضمتـه إلـى صدرهـا وهـي تبكـي، فسـألها سـؤاله البـريء: أيـن بابـا ومامـا وإخوتـي؟ فقالـت: لقـد رحلـوا إلـى الجنـة، وانهمـرت الدمـوع غزيـرة مـن عينيـه فقـد كان يحـاول مغالطـة نفسـه كثيـرا قبـل سـماعه هـذا الخبـر، ويحـاول إقناعهـا أنهـم خرجـوا مـن البيـت قبـل أن يصبحـوا ركامـا.

كان الدفـاع المدنـي قـد فـرغ مـن رفـع الأنقـاض وإخـراج الجثـث المغبـرة، ألقـى وضـاح نظـرة أخيـرة على أسـرته قبـل أن تمضـي بـه خالتـه وتوصـي بعـض الأشـخاص أن يصحبـه إلـى دارهـا بينمـا تقـوم بـوداع أختهـا.

تحـول وضـاح ليعيـش في بيـت خالتـه «وفـاء»، كانـت وفـاء في منتصـف العقـد الثالـث مـن عمرهـا، وهـي امـرأة كمعظـم نسـاء الريـف لـم تحـظ بقسـط وافـر مـن التعليـم، وبالـكاد تسـتطيع القـراءة والكتابـة، فقـد أُخرجـت مـن المدرسـة عندمـا كانـت في الصـف الثالـث الابتدائـي لترافـق أسـرتها وتعينهـم على العمـل في أرضهـم الزراعيـة، وإلـى ذلـك فوفـاء امـرأة متدينـة تخـاف الله وتتقـي المحرمـات، ولكـن يشـتمل تدينهـا على خرافـات تخالـف عقيـدة الإسـلام الناصعـة. أمـا زوجهـا دحَّـام فرجـل جلـف غليـظ قاسـي القلـب

قليـل الديـن، يقـدم المـال على كل شـيء، وقـد اشـتهر عنـه قولـه: «مسـتعد لبيـع أبـي مقابـل المـال»، وقـد عانـت وفـاء مـن زوجهـا الشـرير الظالـم كثيـرا.

ولكـن العـادات والتقاليـد المهترئـة ونظـرة المجتمـع القاسـية إلـى المـرأة المطلقـة أجبرتهـا على كتـم جراحهـا والصبـر على أذى زوجهـا وعنفـه وقسـوته؛ فيجـب على وفـاء أن تسـتيقظ مبكـرا جـدا فتعتنـي بالداجـن، ثـم تعـد طعـام الغـداء [هـذا اسـمه الصحيـح لغـة]، ثـم تنظـف الصحـاف والآنيـة بعـد ذلـك وتسـتعد للانطـلاق لتعمـل في الأرض الزراعيـة، ثـم تعـود ظهـرا لتعـد وجبـة طعـام أخـرى وتنظـف البيـت وتنشـغل بشـؤونه، بينمـا زوجهـا قاعـد في المضافـة مـع رفاقـه وأولاد عمـه، فـإذا حـل المسـاء ومضى منـه هزيـع قـام دحـام إلـى فراشـه وربمـا كان متضايقـا مـن أمـر مـا فيفـرغ غضبـه وسـخطه في زوجـه، وقـد يتطـور الأمـر إلـى ضربهـا.

كانـت وفـاء تخشـى أن يعـارض زوجهـا ضـم وضـاح إلـى بيتـه، فهـي تعلـم حرصـه على المـال وبخلـه بـه، ولكنهـا فوجئـت بزوجهـا يسـتقبل ابـن أختهـا وضـاح أجمـل اسـتقبال وأحسـنه، ويرحـب بـه أفضـل ترحيـب، فظنـت أن قلبـه رق لهـذا اليتيـم المسـكين الـذي فقـد أسـرته كامـلا وأضحـى كالفـرخ الملقـى على قارعـة الطريـق في ليلـة مطيـرة شـاتية.
والحـق أن ظـن وفـاء كان في واد وتفكيـر دحـام في واد آخـر، فقـد رأى في وضـاح صيـدا ثمينـا لا يفـرط في مثلـه إلا أحمـق، وبالطبـع لـم يـدر في خلـده مـا ورد مـن فضـل في كفالـة اليتيـم وحسـن رعايتـه والعنايـة بـه وإكرامـه، بـل كان مـا سـيطر على تفكيـره هـو العائـد الدنيـوي الـذي سـيناله مـن المنظمـات التـي سيسـجل فيهـا وضـاح لتقـدم لـه كفالـة شـهرية، وحتـى يُعمِّـي ذلـك على النـاس فقـد اتخـذ مـن حديـث النبـي صلـى الله عليـه وسـلم: «أنـا وكافـل اليتيـم في الجنـة كهاتيـن، وأشـار بالسـبابة والوسـطى» اتخـذ مـن هـذا الحديـث جُنـة يتقـي بـه ظنـون النـاس، فـكان كلمـا جلـس مجلسـا ذكـر هـذا الحديـث وتفاخـر بمـا مـنَّ الله بـه عليـه مـن كفالـة هـذا الضعيـف المسـكين...

استشـهدت عائلـة وضـاح وأصبـح يتيمـا، وتكفـل دحـام زوج خالتـه وفـاء برعايتـه، وفـور قـدوم وضـاح إلـى البيـت سـارع دحـام باصطحابـه إلـى مركـز إحـدى المنظمـات التـي تكفـل الأيتـام وتقـدم لهـم يـد العـون والمسـاعدة، وهنـاك دون اسـم وضـاح في جـدول الأيتـام الذيـن تكفلهـم تلـك المنظمـة وتكفلـت المنظمـة بخمسـين دولارا شـهريًا مـع بعـض المسـاعدات العينيـة التـي تأتـي في المناسـبات كلبـاس العيـد وهدايـاه، ولكـن دحامـا توسـل لهـم بـأن هـذا الطفـل فقـد أبـاه وأمـه وإخوتـه وليـس مجـرد يتيـم فقـط، وأنـه

يحتـاج لرعايـة خاصـة، فاسـتثنته المنظمـة وجعلـت كفالتـه مائـة دولار شـهريا وليسـت خمسـين دولارا كبقيـة اليتامـى.

وعنـد حلـول رأس الشـهر قبـض دحَّـام المائـة دولار ثـم عاد إلـى زوجـه متصنعا الـورع مرائيا بالقناعـة والزهـد، وقـال لهـا: اسـمعي يـا امـرأة، أنـا سـأقف مـع هـذا اليتيـم وسـأراعيه جـدا وأعاملـه أفضـل معاملـة، وسأحتسـب مـا أنفقـه عليـه زيـادة عـن المائـة دولار لوجـه اللـه تعالـى.

فذهلت المرأة وفغرت فاها من الدهشة، وقالت: مائة دولار وزيادة؟!
فقال: هذا هو الواقع، ولكنني أريد أن أكسب أجرا في هذا اليتيم.
وصدمتهـا إجابـة زوجهـا جـدا، وهمّـت أن تصـرخ وتقـول لـه: يـا ظالـم اتـق الله، هـذا يتيـم لا حـول لـه ولا قـوة، تريـد أن تسـتولي على مالـه، ألا تخـاف الله؟ ولكنهـا خشـيت بطشـه وتجبـره، واكتفـت بـأن قالـت لـه: أظـن الأمـر غيـر ذلـك.
فتغيـر وجـه دحَّـام وارتفعـت نبـرة صوتـه مـع حـدة شـديدة، وقـال: تعالـي احسـبي بالورقـة والقلـم.

خمسـة وعشـرون دولارا أجـرة سـكنه، علمـا أننـا لـو أردنـا اسـتئجار بيـت لـه فلـن نجـد بأقـل مـن خمسـة وثلاثيـن، إضافـة إلـى أن بيتنـا مفـروش بالأمتعـة التـي يحتاجهـا مـن الأثـاث والفـرش.

وخمسـون دولارا ثمـن طعـام وشـراب إفطـار وغـذاء وعشـاء وفواكـه وحلـو ومشـروبات، وخمسـة وعشـرون دولارا للملابـس والكهربـاء والمـاء والـدواء، وخمسـة وعشـرون دولارا للدراسـة والألعـاب والأعيـاد والتنقـلات، وخمسـة وعـش..

قاطعتـه وفـاء: كفـى كفـى، ونظـرت إلـى زوجهـا فـرأت الشـرر يتطايـر مـن عيونـه، وكأنـه ينتظـر كلمـة معارضـة ليعصـف بهـا ويحـول جلدهـا إلـى ألـوان قـوس قـزح، فلـم تملـك إلا أن قالـت لـه: جـزاك الله خيـرا.

فقال بابتسامة خبيثة: هذا الكلام الذي يسمع، ولا يشكر الله من لا يشكر الناس.
كانـت نفـس دحـام قـد بلغـت الحضيـض في الدنـاءة والطمـع، فـكان شـيطانه يسـول لـه ليسـرق مزيـدا مـن المـال باسـم هـذا اليتيـم، فـكان كثيـرا مـا يتحـدث في مجالسـه

وبيـن معارفـه أن الحيـاة صعبـة، وأنـه يتحمـل ويضحـي مـن أجـل هـذا اليتيـم الـذي جـاء في زمـن الحـرب، فـكان كثيـر ممـن يسـمعون هـذا الـكلام يرسـلون لدحـام كل فتـرة أمـوالا وإغاثـات لأجـل أن يرعـى هـذا اليتيـم الـذي عنـده.

مـرت الشـهور والسـنون سـريعة، وبـدأ وضـاح يـدرك الظلـم المحيـق بـه مـن قبـل زوج خالتـه دحَّـام، إلا أن أشـد مـا كان يؤلمـه ويحـز في نفسـه ويسـتثير غضبـه عندمـا يسـمع دحَّامـا وهـو في مجلسـه يتكلـم عـن اهتمامـه بيتيمـه ورعايتـه واحتسـاب الأجـر في ذلك، ثـم يتبـع ذلـك بالترهيـب مـن أكل أمـوال اليتامـى، ومـا أعـد الله لمـن يـأكل أمـوال اليتامى مـن أليـم العـذاب وشـديد العقـاب، ويختـم حديثـه بذكـر تفاهـة الدنيـا وحقارتهـا وأنهـا لا تسـتحق أن يضيـع الإنسـان آخرتـه لأجلهـا.

كان وضـاح عندمـا يسـمع هـذا الحديـث يـود لـو أنـه تحـول إلـى بـركان ثـم انفجـر في وجـه دحـام فأحرقـه وأحـرق معـه نفاقـه السـمج الممجـوج، فـلا أقبـحَ مـن خائـن لـص يدعـي الشـرف والأمانـة، وقـد هـمَّ مـرارا أن يصـرخ في وجهـه أمـام الضيـوف كفـاك كذبـا ونفاقـا أيهـا المجـرم، إلا أنـه آثـر السـلامة ورأى نفسـه في غنـى عـن حماسـة لا تُحمـد عقباهـا، حتـى كان ذات يـوم واجتمـع دحـام كعادتـه بضيوفـه وابتـدأ يعيـد موعظتـه الكاذبـة، ولكنـه هـذه المـرة أضـاف إليهـا فقـرة جعلـت صـواب وضـاح يطيـش؛ فقـد ذكـر أنـه اضطـر مـن أجـل الإنفـاق على وضـاح إلـى بيـع أسـورة زوجتـه الذهبيـة كـي لا يشـعر وضـاح أنـه أقـل مـن رصفائـه ولا يحـس بمـرارة فقـد الأب والأم.

سـرى التوتـر في كل ذرة مـن ذرات جسـم وضـاح، فصـرخ بصـوت عـال: كفـى كفـى كفـاك كذبـا ونفاقـا، ألا يكفيـك أنـك تسـرق الأمـوال التـي تأتينـي مـن المنظمـة والتـي تتسـولها باسـمي ثـم أنـت اليـوم تكـذب باسـم خالتـي وذهبهـا؟ أمـا لـك ديـن يردعـك أو خلـق يرفعـك؟

دارت الأرض بدحـام وشـعر بخـزي شـديد مـع غضـب عـارم، وود لـو أن الأرض فتحـت فاهـا وابتلعتـه، ولكـي يـدرأ عـن نفسـه التهمـة التـي وصمـه بهـا وضـاح وبـدا أن الجمـع قـد تلقوهـا بالتصديـق والقبـول، أخـذ يعـدد أفضالـه على وضـاح ثـم اتهمـه بنكـران الجميـل، وعلـم دحـام في قـرارة نفسـه أن زمـن السـرقة باسـم اليتيـم قـد انتهـى، وأن اليتيـم أصبـح شـابا يصعـب ترويضـه، عندهـا أمـر بطـرد وضـاح مـن المنـزل، وحتـى يقطـع الطريـق على كل محاولـة إصـلاح قـد تأتـي مسـتقبلا فإنـه أتبـع الطـرد بحلفـه بالطـلاق ثلاثـا ألا يعـود إلـى المنـزل ثانيـة.

خرج وضاح كاسف البال حزينا، ولكنه لم يداخله شعور بالندم قط على ما فعل، فهو واثق من صواب فعله وموقن بأن الله سينتقم له، وقد يمهل الله الظالم ويؤخر عقوبته حينا لكنها لا محالة واقعة ومحيقة به.

سمع شيخ القرية بقصة وضاح ذلك اليوم فسارع بالبحث عنه حتى وجده فأخذ يلاطفه ويخفف من حزنه ويحاول رفع ركام الألم الجاثم على صدره حتى انشرح صدر وضاح وسلا عن حزنه، ولكن لا زالت أمامه عقبات كثيرة، فأين يسكن؟ وكيف يواجه مصاعب الحياة؟ غير أن شيخ القرية أزال مخاوفه كلها عندما عرض عليه أن يُدخله معهدا داخليا يتعلم فيه ما ينفعه ويكفيه مؤنة ما سبق.

سار قطار الذكريات بوضاح بعد أن استعرض غدر عمه بوالده ثم غدر زوج خالته به، وهو الآن يستعرض بذهنه مرحلة حياته الجديدة ومشهد دخوله المعهد وجلوسه بين زملائه الطلبة، ثم دخول المدرس عليهم، واستمر في ذكرياته حتى أحس بيد زميله تحط على كتفه لتوقظه من ذكريات الماضي وتسوقه إلى واجبات الحاضر، التفت وضاح إلى زميله الذي سأله: ما لك شارد هكذا يا وضاح؟ هل أنهيت حفظ دروسك؟

وهنا نفض وضاح هموم الماضي عن جنبيه ليعيش يومه الحاضر ويستعد لمستقبل يرجو أن يكون أفضل مما سبقه.

انتهت.

دعوة العجوز

أشارت الساعة إلى السابعة والنصف صباحا، وأخذ المنبه يرن بشدة مزعجة وكأنه مطرقة تطرق الرؤوس وتصك الآذان، آه كم أكره صوت المنبه، ربما أكرهه أكثر من صوت القذائف التي تتساقط يوميا على مدينتنا الحبيبة حلب.

أسكتُّ المنبه بتسخط، ثم نهضت استعدادا للسفر مع الشيخ أبي عبادة إلى سراقب، فهناك عدد من الأمور الإدارية يجب أن ننتهي منها قبل حلول رأس الشهر. بالنسبة لي فأنا أعرف الشيخ أبا عبادة منذ عامين، أعرف فيه الخلق الحسن والبذل والتضحية والصبر ومحبة الخير للمسلمين وعلو الهمة في العلم والعمل، ولكن هذه هي المرة الأولى التي سأسافر فيها معه، بل هي المرة الأولى التي أركب معه في سيارة واحدة.

غسلت النوم عن عيني بوضوء بارد منعش في أيام الصيف هذه، ثم صليت ركعتي الضحى، وما إن فرغت حتى كانت زوجتي قد فرغت أيضا من إعداد الفطور، تناولت لقيمات قليلة ثم جلست أرتشف رشفات من فنجان القهوة شرابي المفضل، وما إن جاوزت عقارب الساعة الثامنة بقليل حتى تلقيت تنبيها على القبضة، فقد وصل الشيخ أبو عبادة، لبست حذائي ثم مضيت مسرعا حيث شاهدت الشيخ أبا عبادة في سيارته ينتظرني، ألقيت عليه السلام ثم صعدت وجلست بجانبه، تبادلنا التحية والسؤال عن الأحوال والأهل والصحة، ثم ساد الصمت في السيارة، الصمت الذي لا يشقه إلا هدير المحرك أو تنبيهات الزمور التي يطلقها الشيخ أبو عبادة أثناء قيادته السيارة حين يستدعي الأمر ذلك.

لم نجاوز دوار الشعار إلا بمسافة حتى أشار شابان للشيخ أبي عبادة فتوقف، وأقبل الشابان فألقيا السلام، ثم قالا: نحن ذاهبون إلى منطقة الشقيف، فقال لهما الشيخ: تفضلا، صعد الشابان في المقعد الخلفي للسيارة ومضت السيارة في طريقها حتى وصلت الشقيف حيث نزل الشابان بعد أن أهداهما الشيخ أبو عبادة كتيب حصن المسلم لكل واحد منهما، ومن عادة الشيخ دائما أن يحمل عددا من هذا الكتيب النافع ويهدي منه كل من صادفه في الطريق من شباب الحواجز أو من يصعد مع الشيخ في السيارة.

وبعد أن قطعنا منطقة كفر حمرة أشار إلينا رجل مع أسرته فتوقف الشيخ وحمله، ثم نزل الرجل وأسرته بعد قريتين.

ولما دخلنا منطقة أورم أشارت امرأتان مع شاب صغير فحملهم الشيخ في طريقه، وكان جميع من صعد معنا يدعو لنا قبيل نزوله بالحفظ والنصر.

وبالمختصر لم نصل سراقب حتى بلغ عدد من أشار إلينا وصعد معنا تسعة أشخاص.
أمضينا في سراقب بضع ساعات أنهينا فيها ما يجب علينا إنهاؤه، ثم صلينا الظهر وتناولنا كوبا من العصير البارد وتوجهنا إلى السيارة لتبدأ رحلة العودة إلى حلب.
لم نسر بالسيارة إلا مسافة يسيرة حتى أشار إلينا رجل ومعه كيس كبير، وكان من الواضح أن الشمس لفحت الرجل بحرها فأخذ العرق يتصبب منه بغزارة، ولما رآه الشيخ أبو عبادة قال: حسبنا الله ونعم الوكيل، كان الله بعون هؤلاء المساكين، ثم وقف حتى صعد الرجل وأصعد كيسه، وانطلقت السيارة في طريقها.

ولما نزل الرجل بعد وصوله إلى قريته قلت للشيخ أبي عبادة: يا شيخنا الكريم إن مساعدة الناس ورحمتهم والإشفاق عليهم أمر في غاية الحسن، ولكن أنت ترى الأوضاع الأمنية المتردية التي نعيشها وجرائم الاغتيالات والخطف التي تقوم بها خلايا الخوارج المفسدين، فلو أخذت حذرك وكففت عن حمل كلِّ من أشار إليك وأنت في سيارتك.

فقال لي: عجبا لك، أتنهاني عن معروف أقوم به، لقد خاب ظني فيك.
فأجبت: معاذ الله أن أنهاك عن معروف، إنما أنهاك عن الاستهتار بنفسك، فإنك لا تدري لعل داعشيا يشير إليك ثم يقوم بقتلك أو خطفك، خاصة وأنت كثيرا ما تسافر وحيدا.

فقال لي: لقد حدث ذلك فعلا.
فدهشت وقلت: حدث ماذا؟
قال: حدث أن خطفني داعشيان.
فقلت: كيف ذلك وكيف نجوت منهما.
فقال: نجوت بدعوة العجوز.
فقلت: أي عجوز؟ حدثني بالقصة من أولها.

فقال: هي ليست قصة بل اثنتان؛ قصة العجوز وقصة الدواعش.
فقلت: دع عنك التدقيق وحدثني.

فقال: حسنا، وسأبدأ بقصة العجوز؛ فذات يوم وبينما أقود سيارتي في برد قارص أشارت إلي عجوز طاعنة في السن قد حفر الدهر أخاديد في وجهها وقوست السنون ظهرها، فوقفت لها حتى صعدت، ثم أخذت تشكو إلي أنها منذ أكثر من نصف ساعة وهي واقفة تنتظر أن يقلها أحد في سيارته، وقد أشارت إلى عدد من السيارات فلم يعرها سائقوها انتباها، ثم أخذت تدعو لي بأدعية كثيرة، وأنا أؤمن على دعائها وأقول: ولك بمثل إن شاء الله يا خالة، حتى وصلت حيث تريد فنزلت وقالت لي: «أسأل الله أن يحفظك من الحكام والظلام وأولاد الحرام»، ومضت في طريقها ومضيت في طريقي.

ومرت الأيام وبينما أنا أقود سيارتي في إحدى القرى القريبة من مطار أبي الظهور أشار إلي شابان لم يعجبني منظرهما ولكني وقفت لهما وقلت في نفسي: لعلي أنصحهما ويجعل الله هدايتهما على يدي، ولما صعد الشابان ابتدأت أسألهما عن أخبارهما وأعمالهما، فأخبراني أنهما يعملان في البناء، فقلت: أنتما شابان ممتلآن حيوية وقوة، ولا بد أن تجاهدا في سبيل الله، ألا تريان ما يفعل النظام المجرم من تقتيل وتشريد.

فقالا لي: وهل أنت مجاهد؟
فقلت: طبعا إذ كيف آمركم بأمر وأغفل عنه، قال: ولم أدر أني أوقعت نفسي بجوابي هذا.

فما إن سمعا ذلك مني حتى وضع أحدهما مسدسه في رأسي وقال لي: اتجه يمينا يا مرتد.

فعلمت حينها أنهما من خلايا الخوارج ولم يكن بمقدوري إلا أن أسير حسب إرشادهما، وأخذت أفكر كيف يمكن أن أتخلص من هذه الورطة التي وقعت فيها، واتجهت بقلبي إلى الله أستغيثه وأسأله الفرج وأدعوه دعاء المضطر، وتذكرت قصة قرأتها في صغري تحرك جانب المروءة في الإنسان، وهي أن راكبا كان يسير في الصحراء فوجد رجلا ملقى على الأرض يشير إليه، فلما نزل ليعين الرجل الملقى نهض ذاك

الرجـل وأشـهر سـيفه وأراد أن يقتـل الراكـب ويسـلبه متاعـه، فقـال لـه الراكـب: يـا هـذا إذا قتلتنـي وأخـذت سـلبي فـلا تحـدث أحـدا بقصتـي حتـى لا تضيـع المـروءة في النـاس ويزهـدوا في إغاثـة الملهـوف وإعانـة المحتـاج، فاسـتحيا قاطـع الطريـق وتـاب إلـى الله تبـارك وتعالـى وتـرك مـا كان فيـه مـن الإجـرام.

فقلت لهما: يا هذان اسمحا لي بكلمة فقط.
فقالا: ما تريد؟
فقلـت: إذا قتلتمانـي فـلا تحدثـا النـاس بالطريقـة التـي خطفتمونـي فيهـا حتـى لا تضيع المـروءة بيــن الناس.
فقالا لي: اهتم لنار جهنم التي سنزفك إليها بعد قليل ودعك من أمر الناس.
وأصبـت بخيبـة أمـل شـديدة لـدى سـماعي جوابهمـا، وحاولـت أن أناقشـهما لمـاذا أنـا مرتــد؟
فقالا لي: ستعلم ذلك بعد أن تدخل جهنم.

ثم وصلنا إلى بيت في طرف قرية نائية فأنزلاني وقيداني في إحدى الغرف.
وقال أحدهما للآخر: هل نذبحه الآن أم نتركه إلى الغد؟
فقال الثاني: دعنا الآن نغير ملابسنا ونأكل لقمتين أولا ثم نذبحه.

وأخـذت أتضـرع إلـى الله وأتوسـل إليـه بـكل عمـل صالـح لـي عملتـه، وأقـول: يـا رب لا تجعـل فعلـي الخيـر سـببا لقتلـي، يـا رب أنـت تعلـم أنـي أردت بحملهمـا مرضاتـك، يـا رب إنـك لا تصلـح عمـل المفسـدين وإن هـؤلاء مـن المفسـدين، يـا رب انتقـم منهمـا جـزاء غدرهــم.

وبينمـا أنـا مسـتغرق في دعائـي إذ قـال أحدهمـا للآخـر: تعـال سـاعدني في نـزع حزامـي الناسـف، فلمـا جـاء الآخـر وأخـذ يعالـج الحـزام الناسـف لينزعـه سـحب الصاعـق بالخطـأ فانفجـر الحـزام وقتـل الخارجيـان، وسـمع أهـل القريـة الانفجـار فأقبلـوا إلـى البيـت الـذي أنـا فيـه وأخـذوا يصيحـون: مـا الـذي جـرى، فقلـت: أنـا هنـا سـاعدوني، النجـدة، فكسـروا قفـل البيـت، وأنقذونـي بفضـل الله تعالـى.

خرجـت مـن المنطقـة، وقلـت في نفسـي: لـن أقـف بعـد اليـوم لأحـد يشـير لـي كائنـا مـن كان، ولـو رأيتـه يتشـحط بدمائه.

ولما وصلت بيتي وأخلدت إلى النوم أتاني آت في منامي، فقال: بئس ما نويت من الكف عن حمل الناس، أتعلم بم أنجاك الله؟
فقلت: بمَ.

فقال: بدعاء العجوز حين قالت: «أسأل الله أن يحفظك من الحكام والظلام وأولاد الحرام» وإن هذين من الظلام، فكن في عون إخوانك يكن الله في عونك.
ثم استيقظت وآليت على نفسي ألا يشير إلي أحد إلا وقفت له وحملته ما دام ذلك ممكنا .

انتهت.

اعتاد حمدون أن يخرج كل يوم من بيته عندما تمد الشمس أذرعها الدافئة لتحتضن بها الأرض فيقصد إلى الإسطبل ليخرج حماره وينطلق به إلى الغابة فيمكث فيها بضع ساعات يجمع الحطب ثم يجعله في حزم ويضعه على ظهر الحمار ويقصد به السوق ليبيعه ويكسب نفقة يومه بشرف من عرق جبينه، ولا يحتاج أن يتسول الناس أو أن يقف بباب اللئام، وكان دائما يقول: «لأن أسفح عرق جبيني في كسب المال خير من أن أريق ماء وجهي عند اللئام».

لم يكن ثمن الحطب الذي يكسبه يوميا يفيض عن حاجته، بل كان بالكاد يكفيه، وإن حدث ولم يخرج حمدون لجمع الحطب لمرض نزل به فهذا يعني أنه سيستدين أو يطوي ليلته دون عشاء.

وذات مرة وبينما حمدون عائدا إلى بيته بعد جمعه الحطب اعترضه قائد مفرزة الشرطة وطلب منه إبراز رخصة جمع الحطب.

فدهش حمدون، وقال: متى كان لجمع الحطب رخصة؟!
فقال: الرخصة أو مصادرة الحطب.

فقال حمدون: أبرز لي القرار الذي يشترط علي ترخيص جمع الحطب.
شعر الرجل بالحرج فلجأ إلى أسلوب آخر يخفي فيه حرجه، فقال لحمدون: يبدو أنك قليل الأدب ومتطاول على القانون، ولذلك سنعاملك بطريقتنا الخاصة، ثم أعطى أمرا لعناصر الشرطة بأن ينهالوا على حمدون بالضرب ويصادروا حطبه، وفي غضون دقائق كان حمدون مرميا على قارعة الطريق والدماء تسيل من أنفه وفمه، وقد امتلأ جسده بالكدمات، فيما حمل الجنود الحطب ومضوا به.

وفي الطريق سأل أحد الجنود قائده: متى صدر قانون الرخصة هذا؟
فقهقه القائد بصوت عال وقال للجندي: هدف القانون حماية المدينة، ونحن حماة المدينة، فأوامرنا وتصرفاتنا هي القانون، أليس من الظلم أن ننشغل نحن بحماية المواطنين وينشغلون هم بالعمل والكسب وجمع المال؛ لذا فنحن -حماة المدينة- شركاؤهم في كسبهم.

وهنا صرخ الجندي قائلا: صدقت يا سيدي نحن حماة الديار نحافظ على بيضة الشعب، ولولا نحن لضاعت أموالهم، كم هو حقير هذا الحطّاب وهو يريد أن يمنعنا من أخذ الحطب دون أن يُقدِّر جهودنا.

ودغدغت هذه الكلمات غرور القائد فقهقه وقال: يظلمنا الناس باعتراضهم على أفعالنا التي فيها مصلحة المدينة!

عاد حمدون إلى بيته والألم يملأ قلبه، فهل يعقل أن يُسلب الفقير قوت يومه الذي لا يجد سواه، والسالب هم المكلفون بحمايته أصلا؟

دخل حمدون بيته فاستقبلته زوجته وقد امتلأ قلبها خوفا وسارعت تمطر حمدون بسيل أسئلتها: من فعل بك هذا؟ ولماذا؟ وكيف؟ ومتى؟ وأين؟
فقال حمدون: دعيني أرتاح أولا فأسئلتك المتتابعة وأنا في هذه الحالة أشد علي مما جرى لي.

وبعد أن ارتاح قليلا وغسل جراحه حكى حمدون لزوجته ما جرى له، وبيْن كل جملتين كان يذكرهما حمدون كانت زوجته تطلق من فمها دعوة على أولئك الظالمين بالدمار والهلاك وأنواع الأمراض والأوبئة والآفات والمصائب والرزايا.
وبعد أن انتهى من حديثه سألته: وماذا ستفعل الآن؟ والأهم من ذلك: ماذا سنأكل اليوم ؟
فقال لها: تدبري أمر طعامك وأولادك اليوم، أما أنا فلا حاجة لي بالطعام فقد أكلت من الصفع والركل والعصي ما أتخمني، وسأذهب الآن لأشكو أولئك المجرمين إلى حاكم المدينة.

وتوجست الزوجة شرا من ذكر الحاكم فأرادت أن تثني زوجها عن عزمه، فقالت له: ولم لا تستشير الحكيم أولا؟
فقال الزوج: نعم الرأي.

كان الرجل الحكيم يقيم في طرف المدينة بعيدا عن مخالطة الناس، وكان مشهورا بفطنته وذكائه وخبرته الواسعة بخفايا النفوس البشرية، إضافة إلى ندرة كلامه، فهو لا يجيب السائل إلا بجملة واحدة لا يثنيها.

ذهب حمدون إلى الرجل الحكيم وقص عليه القصة وأخبره أنه عازم على رفع الأمر إلى الحاكم.

فقال له الحكيم: «الكلب لا يعض ذنبه» وسكت.
وعلم حمدون أن الزيارة قد انتهت، فانحدر عائدا إلى بيته وقد شعر أن الشكوى عند الحاكم لن تنفع، ولكنه حزم أمره متوجها إلى قصر الحاكم قائلا: «إن لم تنفع الشكوى فلن تضر»، فلما دخل على الحاكم أخبره بما جرى.

فأظهر الحاكم تألمه الشديد وأمر على الفور بتشكيل لجنة تستمع إلى أقوال الطرفين ثم ترد الحق إلى صاحبه.

وما إن خرج حمدون حتى دخل قائد المفرزة ومعه أمتعة وأطعمة كثيرة، ومن بينها حزم الحطب التي سلبها من حمدون، وقال: هذه مصادرات اليوم يا مولاي، وهذه الحزم مصادرات من التعيس الذي كان عندك قبل قليل، وأظنه كان يشكوني.
قهقه الحاكم وقال: نعم، إنه شخص جاحد لفضلنا عليه، ولكني سأجعله عبرة لكل من تسول له نفسه الاعتراض على رجالي رجال الأمن حماة الديار.

وشكلت المحكمة وعقدت الجلسات واستمعت إلى الأطراف، ثم صدر الحكم بمصادرة الحمار؛ لأن حمدون لا يملك رخصة قيادة للحمار، وبتكريم قائد المفرزة لجهوده المضنية المبذولة لحماية المواطنين وتوفير أسباب الراحة لهم.

رجع حمدون إلى بيته وهو يشعر بالقهر الشديد والندم الكبير؛ لأنه أهمل نصيحة الرجل الحكيم، ولينسى شيئا من همه وغمه ذهب ليسهر عند بعض رفاقه، ولما استقر به المجلس قص ما جرى معه.

فقال له صديقه الجزار: أما أنا فقد جاءني قائد المفرزة وطلب مني شهادة نسب الخروف المعلق بالكلاليب وأنه وُلد من سلالة سليمة، ولما أبديت استغرابي صادر الخروف، فذهبت إلى الحكيم فقال لي بعد أن استشرته في الشكاية: «لا يستقيم الظل والعود معوج»، فشكوت أمري إلى الله.

وأما بائع الخضار فانبرى يقول: لقد جاء إليَّ وملأ ثلاثة أكياس كبيرة من الفواكه

والخضـار، وقـال لـي: سـنفحصها هـل تصلـح للاسـتهلاك البشـري أم لا!
وهنـا عـدَّل الخيـاط مـن جلسـته، وقـال: لقـد جـاء إلـي وسـلبني ثوبـا فاخـرا مـن الحريـر زاعمـا أن هنـاك مـن سـرق كميـة مـن ديـدان القـز وأنهـم سـيأخذون البصمـات مـن الثـوب لعلهـم يتوصلـون للسـارق، وقـد ترافقـتُ مـع بائـع الخضـار إلـى الحكيـم الـذي قـال لنـا: «لـو لـم يغـض القـط الطـرف لمـا لعـب الفـأر» فضربنـا صفحـا عـن الشـكوى.

ثـم جـاء دور النجـار ليقـول: لعلـي لسـت أسـوأكم حظـا؛ فقـد جاءني وأخـذ يجـول بناظريه في حانوتـي، وعلمـت أنـه يبحـث عـن ذريعـة ليسـلب شـيئا مـن الـدكان، فبادرتـه قائـلا: أريـد أن أتشـرف بالمسـاهمة في دفـع ثمـن طعـام الفطـور لرجـال أمننـا البواسـل، وأتمنـى ألا تحرمنـي شـرف تلـك المسـاهمة اليسـيرة، فكـم ثمـن فطوركـم؟ فضحـك قائـد المفـرزة قائـلا: يعجبنـي المواطـن الـذي يعـرف مصلحتـه ومصلحـة المدينـة، ثمـن الفطـور عشـرة دراهـم، فدفعتهـا إليـه وانصـرف.

وقـد تعجـب قائـد المفـرزة وهـو يـرى كل مـن يظلمـه يذهـب مسـارعا إلـى الرجـل الحكيـم، فقـرر أن يذهـب إلـى الحكيـم ليـرى مـا لديـه.

فركـب حمـار حمـدون المصـادر وذهـب إلـى الرجـل الحكيـم، فلمـا دخـل عليـه عرَّفـه بنفسـه ثـم أخـذ يقـص عليـه منجزاتـه الأمنيـة الوهميـة التـي لا تنتهـي، ولمـا فـرغ قـال الحكيـم جملتيـن على خـلاف عادتـه، قـال: «أحمـق مـن يأمـن تقلبـات الزمـان» و«الواثـق بصبـر المظلـوم كالواثـق بالبـركان الـذي يوشـك أن ينفجـر».

انتهت.

الفهرس